باسم عبد الحميد حمودي

تغريبة الخفاجي عامر العراقي

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 25 / ربيع الاخر / 1447 هـ
الموافق 17 / 10 / 2025 م

سرمد حاتم شكر السامرائي

م. سرمد حاتم شكر

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ــ ١٩٩٤

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة
حقوق الطبع محفوظة
تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق – بغداد – اعظمية
ص.ب. ٤٠٣٢ – تلكس ٢١٤١٣ – هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

دراسات في السيرة الهلالية

تغريبــة

الخفــاجي عامــر العراقي

باسم عبدالحميد حمودي

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books

الاهـــداء

الى راوي العربـان القديم

نجـد بن هشـام

المقدمـــــة

هذه فصول في السيرة الهلالية الكبرى خاصة بالجزء العراقي منهـا ، ذلك الجـزء الذي لم يكتب عنه إلا القليل ، على الرغم من كثرة المرويـات الشفاهية حوله في أقطار العروبة •

يرتبط هذا الجزء بشخصية عراقية تدعى الخفـاجي عامر بن ضرغـام لهـا مكانتها في قصـائد المؤدين وفي حكي رواة السيرة ، وقد قضيت مع هذه الشخصية سنوات في البحث والتنقيب في المرويات والمدونات وجلت في الســعودية وتونس والمغـرب والجزائر لأتفقد آثار (الهـلالية) حتى استوى هذا البحث الذي نشر بعضه منجمـاً ورأيت أن أجمعه ليكون بين يدي القارىء الكريم بتفاصيله الواضحة ، معيداً تشكيل صورة شـخصية شعبية عراقية أخاذة تركت الحكـم من أجل المثـل العليا لتحقـق للآخرين سعادتهم ، وماتت من أجل خير الناس فاستحقت اشادة الرواة والمنشـدين وحب القراء والمستمعين لفصول هذه السيرة الشعبية الجميلة •

الفصل الاول

مكانة الخفاجي في السيرة الهلالية

تشكل شخصية الخفاجي عامر العراقي في السيرة الهلالية الكبرى عموماً وفي التغريبة خصوصاً لوناً من الوان الشخصيات المركبة التي تتمتع بفرادة خاصة لم تدرسها البحوث الخاصة بهذه الملحمة العربية الشعبية إلا عرضاً وفي بعض كتابات الباحثين المعاصرين من دون تمهل وتعرف مستجل لخصائصها ودورها المثير في السيرة •

كان الخفاجي عامر (ويسمونه النجم في مصر والخواجا في تونس) حاكماً على العراق يوم دخل الهلاليون بلاده ، وكان من عادة الهلايين وهم يجوبون الأرض من الحجاز الى حيث تونس أن يرسلوا الرسل الى حاكم أي بلاد يمرون بها ويطلبون منه الأمان ، وقد فعلوا ذلك مع الجميع من الدبيسي بن مزيد[1] الى ملوك العجم وهم « فرمند وعلي شاه والصلصيل والمنل وينذر المنذر والنعمان »[2] ! الى الفرمند ملك مصر وغيرهم كثير •

واذا تتبعنا علاقة الهلاليين بحكام البلاد التي يجتازونها للوصول الى تونس ، وجدنا ان هؤلاء الحكام يحاولون ابتزاز الهلاليين واذلالهم وأخذ عشر أموالهم ونسوتهم ، فيرفض أولئك ثم تقوم الحرب بين بني هلال وحاكم القطر أو المنطقة لتنتهي بانتصار بني هلال وتثبيت حاكم جديد على تلك البلاد ثم رحيلهم منها الى بلاد أخرى عدا حاكم واحد هو العراقي عامر

الخفاجي ، فقد وقف معهم وساندهم واستضافهم ثلاثة أشـهر ، ولم يكتف بذلك بل رحل معهم الى تونس ــ بالرغم من معارضة أهله ووزرائه ــ وقاتل معهم (حتى قتل غـدراً) إيماناً منه بعـدالة قضيتهم في البحث عـن أرض يستقرون فيها ويعيشون بكرامة كسائر العرب .

فلماذا فعل الخفاجي كل ذلك ؟ ومن هو الخفـاجي عامر بالذات وماذا كان يحكم من العراق ؟

ــ الرواية الحجازية ــ

تقول الرواية الحجازية التي جمعتها د. اليسون ليريك من أفواه الرواة ومن مقتطفات منشورة وغير منشورة[٣] :

« يقول ــ الراوي ــ مشوا في طريقهم وطبوا على العراق ولفـوا على الخفاجي بقصر الاخيضر ولما أقبلوا على الخفاجي عامر قالوا ارسلوا وفـد من البنات اعملوا به مثل ما عملنا بالشريف بن هاشـم عن الحرب والضرب تراه يحب البنـات . جنه البنات وسـلمن عليـه قال أنتم لا مـسايرتوني ولا شريتوا ولا بعتوا من المدينة . قالن ممنوعين . وطاح نظره على وطفى بنت ذياب بن غانم وقال تراكم مرخوصين . ويوم رخص لهم بالكيل نزلوا عنده ودخلوا وكيلوا . يوم كالوا وحملوا من العـراق ورحلوا قال اسـلم عليكم يا أهل العراق أنا مالي خوي لكم . أنا صرت هلالي من بني هلال . وشال ومش معهم وقالت أخته دفاله أنا ما أجلس بعدك ، أنا ما أمشـي إلا معك ومشت مع أخوها . فلما راح جت والدته ووصت ذياب بن غانم على ولدها قالت يا ذياب ترى ولدي وداعتك عن الخونة من البطن ولا قبلاكـم أنتم واياه إن تصارع بعض بس عن الخونة فقال عندي » .

ـ الرواية المصرية ـ

وقبل آن نورد أبيات شويله ـ أم عامر على الرواية الحجازية ـ لذياب وأجابته لها ، نرى ان هذه الرواية القصيرة قد استخدمت كلمات مفصحة وحديثة عامياً وان ملخصها ان عامراً كان يحكم قصر الاخيضر عندما دخل الهلاليون ومعنى ذلك انه كان يدير الجانب الغربي الأوسط من العراق وهو جانب بعيد عن بلاد التركمان وحاكمها الذي قتلوه (الملك الغضبان)[٤]. ونصبوا ولده بدله وهو يخالف أيضاً ما أورده رواة آخرون ففوزي العنتيل ينقل خبراً عن الرواية الشعبية المصرية يفيد ان الهلاليين قاتلوا مع عامر ضد (الخراسان) ملك العجم كما سنعرض في الهامش (١٨) وطبعة صبيح المصرية من التغريبة[٥] تخالفها في كثير من التفاصيل فهي ترى في الخفاجي عامر حاكماً على العراق لا على قصر الاخيضر فقط ولا تجده إلا حاكماً حريصاً لا تغريه النساء بل هو يستعد لقتال الهلاليين لولا حكمة الأمير حسن قائدهم الذي كتب له مادحاً مبدياً طاعته له، عندئذ يتبدل الحال ويتقدم الخفاجي لاكرامهم واستضافتهم وفق التفصيل الآتي الذي ترويه طبعة صبيح من التغريبة[٦] .

« قال الراوي لهذه السيرة العجيبة ان بني هلال لما قتلت الغضبان وولت ابنه ملكاً على بلاده ورحلت عن الديار طالبة بلاد العراق فلما وصلوا اليها وجدوا ان الحاكم على تلك البلاد رجل من الأجواد قد اتصف بالجود والكرم والفضائل وحسن المآثر يقال له الخفاجي عامر يحكم على البصرة وبغداد والموصل (وسائر) العراق وما يلي تلك البلاد » .

إذن فعامر هنا لا يحكم ايالات العراق فقط بل يحكم « ما يلي تلك البلاد » ومعنى ذلك انه يحكم أجزاء من الجزيرة العربية والخليج العربي وقد كان للخفاجي ـ حسب المصدر نفسه :

من الابطال والفرسان نحو مائتي ألف عنان فبينما هو جالس في الديوان وحوله الوزراء والأعيان إذ دخلت عليه الرعيان وقالوا له اعلم يا ملك الزمان ان بنو هلال قد دخلت ديارنا وأكلت من ثمار بساتيننا وأشجاره (وأشجارها) وهم كالجراد المنتشر لم يعرف لهم أول من آخر »

إذن فهو « ملك الزمان » وجيشه يضم مائتا ألف «عنان» أي فارس اضافة للمقاتلين الراجلة ، وهو « من أشد فرسان الصدام »[٧] ، كما تصفه طبعة لبنان من التغريبة وهو « حاكم ثمانين قرية » كما تقول والدته شويله وهو أيضاً :

حرم على البيبان ما يغلقونها
مخافة خطار العراق تضيع

دلالة على كرمه وجوده ، ولم تخدعه وطفى ابنة دياب بن غنم (ذياب بن غانم) بل ان الروايات المتضاربة للتغريبة (والمتشابهة احياناً) تجد انه يميل الى الجازية أم محمد وأخت الملك حسن تارة والى وطفى بنت دياب تارة أخرى ولكن هذا الأمر لا يتم بسرعة بل بعد أن أثبت الخفاجي موقفه الكريم واستضاف القوم بعد نقاشات وتهديدات احترم نتيجتها الهلاليون استقلال بلاده فكيف تم ذلك ؟

تقول التغريبة (طبعة صبيح)[٨]:

« قال الراوي فلما سمع الخفاجي هذا الكلام من الرعيان صار الضياء في عينيه كالظلام والتفت الى الأمراء وأكابر الرجال وقال لهم ما قولكم في بني هلال فعند ذلك تقدم الوزير عميرة وأشار يقول :

يقول الفتى المسمى الوزير عميره
ايا يا أمير اسمع لي ترى أفكاري

يا أمير ارسـل للأمـير أبـو علي[٩]

وأبو زيـد والزغبـي[١٠] وكـل كبـار

ليـاتوا بعشـر المـال والخيـل والضنى

والبـوش يـأتـي لك مع الابكـار[١١]

كـل السـراري والجـواري وغيرها

وما يملكـوا مـن فضـة ودراري

فاذا ارسـلوا لـك ما أنـت طالبـه

من الخيـل والأمـوال والأعشـار

فدعهـم يجـوزوا يا أميـر بلادنـا

ويرعـوا مـن أرضنـا ويسـبار

فهـذ كـلامي يـا أميـر ونصيحتي

والشـور عنـدي أحسـن الاشـوار »

وهذا الرأي فعله ملك مثل الدبيسي بن مزيد ملك بلاد حزوة والتـير الذي كتب للهلاليين عندما أرادوا دخـول بلاده فقد كتـب للامير حسن يقـوله[١٢] :

يقـول الدبيسـي والدبيسـي مزيـد

بدمـع جرى فوق الخـدود بـرود

ألا يا غـاديـاً على متـن ضـامر

تشـابه غـزالاً بالفـلاة شـرود

إذا جيـت عنـد الهـلالي أبو علـي

اعطيـه مكتـوبي تنـال سـعود

ألا يا حسـن اسـمع كلامي واعتبـر

وافهـم منـي غـايـة المقصـود

فان كان قصـدك تجـوز بـلادنـا

فارسل لنا عشر مالـك حتى تـرود

ثم يطلب منه آلاف النـوق والدروع والجيـاد ولا يكتفي بذلك بل يطلب منهم الاميرات بالاسم :

وارسـل لنـا الجـازية أم محمـد
مـع الست عليـا بغيـة المقصـود
وارسـل لنـا معها بنـات امارتك
واحذر لا تخـالف لا تكون حقـود[١٣]

ويفعل الخفاجي بداية بمشورة وزيـره ويرسل له كتاباً بهذا المعنـى لا تورد تفاصيله الروايات المتعـددة وربما كان ذلك بسبب اتضـاحه من جواب الأمير حسن عليه كما يأتي ، والمهم هنا ان الأمير حسن رأس التحالف الهلالي يكتب للخفاجي عامر كتـاباً يسلمه لوزير الخفاجي الثـاني (سلام) وقد جاء فيه :[١٤]

أيـا غـادياً منـي على (ظهر) ضـامر
يسـبق مسـير الطـير إن كان طـاير
إن جيـت نحـو الكبيسـة وارضها
فاقـرأ سـلامي للخفـاجي عـامـر
وقل له قـال الأميـر أبـو عـلي
حـاش لمثلك يبنـى للمنـاكر
تريـد بناتنـا يـا خفـاجي ومالنـا
وما تريـد الخيـل ثم الأباعر
وقد شـاع ذكرك في البلاد جميعها
وكفك سخي الجود يا ابن الأكابـر
ونحـن يا أمير لنـا بالغـربه سـادة
بأرض الزنـاتي يا ملك بالجنازر
وجينـا جميعـاً يا أميـر لأجلهـم
لكي تخلصهم بضـرب البـواتر

ولحـن ضيوفك يا خفاجي اهتـدي
بجـاه النبي فخر الورى والعشـاير

فدعنـا تثنـي الخـير بدربنـا
حتى نصل للغرب وأرض الجزاير

يا أميـر نحن تحت حكمك وطـاعتك
فاتعـل بأصلك يا خفـاجي عامـر »

وهذه الأبيات توضح جزءاً من أسباب الرحلة الهلالية الطويلة من بلاد نجـد حتى تونس ، فهم قد تحركوا بداية طلباً للماء والكلأ وللاسـتقرار بعد جدب طال مناطقهم في الجزيرة العربية ولكنهم بعـد ذلك (أصبح لهم بالغرب سادة بأرض الزناتي مغلولين بالجنازر) فقد أرسلوا الأمراء مرعي ويحيى ويونس كطليعة متقدمة وقعت في أسـر الزناتي خليفة حاكـم تونس وهم يريدون تحرير هؤلاء وليس لهم من شر على كل أرض يمـرون بهـا وهذا مبعث احترامهم لعـامر ورجالهم له ألا يؤذيهم (وهم الفرسان الذين يستطيعون القتال والانتصار إن واجههم حكام مثل حكام الفرس أو الفرمند حاكم مصـر أو الديبيسي أو غيره) • ونلاحظ كذلك من هذه الأبيات ان الأمير حسن يخاطب الخفـاجي كملك مرة وكأمير مرة أخرى ويشـير الى كبيسة الحالية كمكان لحكمه وهي مدينة تقع غربي العراق في أرض تقع في اتجاه الاخيضر نفسه وإن كانت ليست قريبة منها • والمهم هنا ان عامراً فتح كتاب الأمير حسن وقرأه :

« وسمعه من كان حاضراً من السادات الكرام قال أبوه درغام — ضرغام — جواب بني هلال أحلى من الماء الزلال فقم اعزمهم وترحب بهم ولا تشهر بوجوههم الحرب لأنهم عابرون طريق فقال الحاضرون هذا هو الصواب »(١٥)•

ومن هذا يتضح أن الخفاجي لم يستبد برأي بل شاور أهله وكبار رجاله وكان والده ـ الأمير ضرغام ـ أسبقهم في ابداء الرأي الصحيح « وفي الحال ركب الأمير خفاجي في جماعة من الابطال وركب والده الأمير ضرغام الاسد وقصدوا منزل بنو هلال ولما علم الأمير حسن بقدوم الخفاجي عليه ورآه عن قريب يصل اليه ركب مع الأمير أبو زيد ودياب وزيدان شيخ الشباب وجميع السادات الانجاب وساروا لاستقباله بالعجل وقد زال عنهم الخوف والوجل ولما التقوا بعضهم البعض نزلوا في تلك الارض وتقدم الأمير حسن الى الخفاجي وسلم عليه وقبله بين عينيه وتقدم الأمير دياب وجميع الامراء الانجاب فسلموا عليه سلام الاحباب فشكرهم على ذلك الاهتمام وسار معهم الى المضارب والخيام فأجلس الأمير والده في صدر الديوان » .

وعاش الهلاليون مع العراقيين مدة من الزمن قبل أن تأخذ الأحداث مجراها ، هذه الأحداث التي سنورد تفاصيلها معتمدين في مكان آخر على رواية الشاعر المصري جابر أبو حسين وتعليق الأبنودي .

أسرة الخفاجي عامر وموقفها

تورد الروايات المتعددة ان لعامر والد يدعى الأمير ضرغام ـ أو دزغام ـ وتقول الرواية الحجازية ان والدته تدعى (شويله) التي تجري حواراً شعرياً شائقاً ومؤلماً بينها وبين الأمير دياب بن غانم عندما قرر ولدها الرحيل مع بني هلال فيما تورد الروايات الاخرى (طبعتا مصر وبيروت مثلاً) ان ابنته ذبالة أو ذؤابة هي التي رجته عدم السفر كما يفعل ذلك والده ضرغام لكن عامراً يقرر السفر ويرحل معه والده وابنته ويترك وزيره عميره وسلام على البلاد .

ويلاحظ كذلك ان الخفاجي عامر قد حكم بلاد العراق على الرغم من ان والده على قيد الحياة وأصول الحكم (أو المشيخة) أن يكون الأب هو الحاكم لكن الظاهر ان عامراً هو الذي استطاع بسيفه وقدرته الخاصة أن يملك ويحكم فكان والده مشاوراً له لا مورثاً الامارة له •

موقف عامر الجديد

عند جلوس الخفاجي عامر في مضارب بني هلال ينشد قصيدة ترويها الرواية المصرية تدلل على كرمه وحسن ضيافته وقيامه بتكريم أفضل وهو ان يعطي أرض كبيسة حتى بغداد للهلاليين لكنهم يأبون ذلك كما تروي الرواية بل هم ينشدون الرحيل بعد مضي ثلاثة أشهر حيث يتم في نهايتها لقاء الجازية بعامر واستئذان الأمير حسن منه بالسفر وهبته له أميرات أربع لكن عامراً يرفض هذا العرض بشرف ويتخذ قراراً مفاجئاً للجميع • فكيف تم ذلك ؟

تقول الرواية ان عامراً في يوم لقائه الاول بالأمير حسن رحب بالجميع ثم قال :(١٦)

قال الخفاجي بن ضرغام عامر
يا مرحباً بك في من أتوا البلاد
يا مرحباً بك يا أمير أبو علي
يا مقري الضيفان والقصاد
يا مرحباً بك يا أمير سلامة
يا قاهر الفرسان يوم الطراد
يا مرحباً بك يا دياب الماجد
يا حامي الزينات حين تنادي

يـا مرحبـاً بك يا بـدر بن فايـد
يـا قاضي العـربان والورادي(١٧)

ثم يتخذ قراره :

يـا بو عـلي سـيروا جميعـاً وانزلوا
بأرض الكبيسـة ثم بأرض الوادي
أهـلا بكم أهـلاً بكم أهـلاً بكم
أنتـم ضيوفي تأكلـون مـن زادي
أوهبتكـم أرض الكبيسـة كلهـا
مـن ها هنـا ــ حتى ــ الى بغـدادي
فجميعهـا بين الأيـادي بحكمكـم
نحـن العبيـد وأنتـم الأسـيادي

لكن السلطان (الملك) حسن يشكره ويبين له ــ كمـا في القصيدة الاولى ــ سبب مرور الهلاليين بأرض العراق وينشد :

يقـول الفتـى حسن الهلالي أبو علي
يـا أميـر عمـرك لا ترى اقـدارا
يـا أمـير نحـن سـايرين مغربـا
يـا أميـر ما نحـن لكم اخطـارا
أولادنـا في الغـرب عنـد خليفـة
في حبـس مالـه يـا أميـر قرارا
نحـن اليهـم سـايرين بسرعة
والله يفعـل كـل ما يختـارا
قد عمنـا جـودك وفيض مكارمك
يـا قاهـر الفرسـان يوم الغـارا

فلما فرغ زعيم الهــلاليين من شعره جامله الخفــاجي ووالده الأمير ضرغام بكلمات مناسبة ثم رحلوا جميعاً الى (داخل البلد) حيث (تفرقت عرب بني هلال في تلك الاراضي) دليلاً على شــعورها بالأمن فيما عــاش رجال الزعامة العراقية والهلالية سوية مدة ثلاثــة شهور في (أكل طعــام وشرب مدام) . وهنا تورد الرواية المصــرية ما يقترب في التفاصيل لا في التوقيت من الروايــة الحجازية ، فالرواية الحجازية تنسب ســفر الخفاجي عامر مع الهلاليين الى رؤيته لابنة ذياب (وطفة) أما الرواية المصرية فتصف ما حدث دون تعليــق ولكن بعض الرويات الشــعبية المصرية تضيف الى الرواية تفاصيل أخرى غريبة(١٨).

والذي حدث ان الامير حسن والهلاليين قد استضافهم الامير عــامر واسرته في حفــل حضرته النساء ومنهم الجــازية أم محمد شقيقة زعيــم الهلاليين المشهورة بجمــالها وقد أنشدت الجــازية (الزازية على الروايــة التونسية) أمام عامر قائلة(١٩):

تقــول فتــاة الحي الجــازية	ونيران قلبي زايدات الشــعال
ان الامــارة يا أميــر لبنــاتهم	من الظبــا والحسن والاشكال
أما جمــال الطعن بنت ســلامة	الوجه منهــا مثل بــدر تمــام
بنت أبو موســى دياب الماجــد	فعيونهــا يا أمير كعين غــزال

ثم تعدد أخريات وتنشــد :

انظــر يا أمير لحســني فانني	أجمل وألطف من نســاء هــلال
قد شاع ذكرك بالمكارم والسخا	وبكــل فضل شــائع وجمــال

قال الراوي فلما فرغت الجــازية من هذا الشــرح والوصف شكرها الخفاجي على شعرها ونظامها »

ويتكرر العرض نفســه على الخفاجي على لســان الملك حسن (أبو

مرعي) قائد التحالف الهلالي في حفل آخر أقامه لعامر حيث ينشد في نهايته شاكراً ومستأذناً بالسفر • ومن بين ما يقول :

فبــقِ من بنــات هــلال أربع
عطيــة مــن أبي مرعــي ملكنــــا

وهن (عطر) ابنته وابنة أبي زيد و(وطفة) بنت دياب وبنت القــاضي بدير ويرفض عامر الخفاجي العرض مرة أخرى بلطف وينشد قائلاً :

مقــالات الخفاجي في نظامــه أبا مرعــي لك الاكــرام منــا
وفيكــم حلت البركة علينا رضاء الحــي فيكم يا مكنــى
ولســت أريد منكم يا هــلالي بنات ولا جمــال ولا أســنة
فليتك دائمــاً يا أمــير قيس مــدا الأيــــام في خــير منــا
قبلت عطيتــك يا فخــر قومك وقد وديتهــا من غيــر منّــه

وهو هنا يعلن مفاجئاً الجميع :

فلا بــد لــي أن أذهــب معــاكم
الــى أرض المغــارب يــا مكنــى
أحــــارب معكــم جيش الأعــادي
بحــد الســيف يا حســن المكنــى

ويفعل الخفاجي ذلك على الرغم من معارضة والده وأمه وزوجته وأبيه ويعلن شفاهاً لحسن ــ ملك بني هــلال : « لا بد من مسيري معكــم الى تونس وأبذل معكم المجهود في استخلاص مرعــي ويونس ويحيى »، وهــم أمراء بني هلال الأسرى لدى حاكم تونس •

وتقول رواية الشاعر جابر أبو حسن المغناة بتقديم وتعليق الشــاعر عبدالرحمن الأبنودي علي لسان عامر :

ويعرفولي ــ سلامة ضاف عندي سنتين ــ والله يعلم باللي
حاصل ــ أشيل ضيفي بنون العين ــ على الضيف منجلش

وصلي خـذوا العزومة وعزمـوا سايرين وعزموا ليـوم الرحيل ــ سلامة گال لي الى تونس الغرب ــ يا بو العميمة النظيفة ــ سايرين غرب معانا قتال ويه خليفة ! انه قتل ولد الاشراف ــ وانا الامـاره أتوني بهيبة الله ما خاف .. أنا سمعت بقتل الأشراف گلت يا عرب هزوا نداكم » .

وهو بذلك يوكد وقوفـه مع بني هلال ضد الزنـاتي (الذي قتـل الاشراف) وقد حارب معهم من أجل احقاق الحق واقامة العدل في الأرض !

موقف أسـرة عامـر من القرار

تقول طبعة بيروت عن ضرغام والد الخفاجي[٢٠]:

« لما سمع أبوه الضرغام منه هذا الكلام لم يهن عليه ذلك الأمـر لأنه ليس له صبر على فراقه ساعة واحدة ، فلم يقبل الخفاجي وطلب من ابنتـه وزوجته أن يذهبـا معه الى تلك الديـار فامتنعتا عن السفر وبكتا بدمـع غزير ثم تقدمت ابنته ذؤابه وأشارت تنهاه عن السفر وتقول :

تقـول ذؤابـه يا أبـي لا تسـافر
فتترك الأهـل في عنـا ومصاب[٢١]

فمـا لك يـا أميـر في الغرب حاجة
ولا لـك بهـا مـال ولا أسباب[٢٢]

ولا ثـار عنـدك للزناتي خليفة
ولا دم لـك ولا أصحـاب

مرعي) قائد التحالف الهلالي في حفل آخر أقامه لعامر حيث ينشد في نهايته شاكراً ومستأذناً بالسفر • ومن بين ما يقول :

فبقٍ من بنات هلال أربع
عطية من أبي مرعي ملكنا

وهن (عطر) ابنته وابنة أبي زيد و(وطفة) بنت دياب وبنت القاضي بدير ويرفض عامر الخفاجي العرض مرة أخرى بلطف وينشد قائلاً :

مقالات الخفاجي في نظامه أبا مرعي لك الاكرام منا
وفيكم حلت البركة علينا رضاء الحي فيكم يا مكنى
ولست أريد منكم يا هلالي بنات ولا جمال ولا أسنة
فليتك دائماً يا أمير قيس مدا الأيام في خير منا
قبلت عطيتك يا فخر قومك وقد وديتها من غير منه

وهو هنا يعلن مفاجئاً الجميع :

فلا بد لي أن أذهب معاكم
الى أرض المغارب يا مكنى
أحارب معكم جيش الأعادي
بحد السيف يا حسن المكنى

ويفعل الخفاجي ذلك على الرغم من معارضة والده وأمه وزوجته وأبيه ويعلن شفاهاً لحسن ــ ملك بني هلال : « لا بد من مسيري معكم الى تونس وأبذل معكم المجهود في استخلاص مرعي ويونس ويحيى » وهم أمراء بني هلال الأسرى لدى حاكم تونس •

وتقول رواية الشاعر جابر أبو حسن المغناة بتقديم وتعليق الشاعر عبدالرحمن الأبنودي على لسان عامر :

ويعرفوني ــ سلامة ضاف عندي سنتين ــ والله يعلم باللي
حاصل ــ أشيل ضيفي بنون العين ــ على الضيف منجلش

والمهم ان الروايتين المصرية واللبنانية (المحرفة عنها) تنقلان انه حين السفر « ركبت الفرسان ظمور الجنايب واعتقلوا بالسيوف والنصول وقد ملأوا بكثرتهم تلك السلول وركبت النساء في الهوادج .. وأمام الجميع زوجة الخفاجي وابنته والجازية ..الخ »[٢٦]

وتورد الرواية الحجازية واقعة أخرى دارت بين أم الخفاجي (شويله) ودياب بن غانم – والد وطفة –وقد روينا الجزء النثري منها في غير هذا المكان واكتشفنا أن الراوي يسمي أخت عامر (دفاله) ولم تظهر للخفاجي أخت بهذا الاسم في الروايات الأخرى ، والمهم هنا ان شويله هذه تنشد لدياب (ذياب) لحظة الوداع :

قالت شويله شالها البين والنيا
جرحا على كل الأباد فنيع
لولا هني الناس في نومة العشا
نومها على سلم وشوك نقيع
لوا ولدي ما جابن البيض مثله
اليا اعتلى في سرج كل طليع

ثم تستمر في الفخر بولدها فتنشد :

لوا ولدي حاكم ثمانين قرية
وفي كل قرية مشتري ومبيع
حرم على البيبان ما يغلقونها
مخافة خطار العراق تضيع
غدت به ثلاث من بنات آل عامر
رهاف التنايا واصلهن رفيع
غدت به ثلاث من بنات آل عامر
عسا ما لهن مع الاله شفيع

غـدت بـه حيـا وريـا وريـدا
وقلب الفتـى بين الثلاث يضيـع

وفتيات آل غامر هن فتيات من بني هلال بن عامر • ولا تقف شـويله (أم الخفاجي) عندهن بل تستمر (منسجمة مع الوصف النثري الحجـازي للقاء الخفاجي بالهلاليين فتضيف :

وغدت به وطفى يوم واقت مع الجنـا
كشمس واقـت مـع ذوابـه ريـع
وغـدت به الجـازية أم محمد
تفـاغي لـه مفـاغـاة رضيـــع

ولا تكتفي بذلك بل تضيف :

وميـا وشـعيا وربـاب وفتنـه
مـع زينـة العيتين بنت بزيـع
هـذه يلاعبهـا وهذي يحبهـا
وهـذه لا بغـي المنـام تطيع

ثم تخاطب دياب بن غنم قائلة :

أنا أودعـك (ابني) يا ذيـاب بن غـانم
حيث انك رجل من الرجال شجيع

فيقول ديـاب :

أنا وديـع له عـن الضيم والظمـا
وبـاقي المنـايا مالهن وديـع

فتجيبـه :

من عقبهـا جيب المناعير فاتنـي
كمـا فات ذوو الممحلين ربيـع
البـدو يرعـون الربيع في مالهم
وانـا عيـوني ما لهـا ربيع(٢٧)

وعلى الرغم من لهفة الأم على ولدها ووصيتها لدياب (أو ذياب) بن غنم أحد زعماء التحالف القيسي الهلالي ووالد وطفى فان رؤيتها المستقبلية ترد في المقدمة النثرية إذ تقول لدياب :

« يا دياب ترى ولدي وذاعتك عن الخونة من البطن ولا قبلاكم انتم وياه ان تصارع بس عن الخونة »(٢٨) وهي بذلك لا ترسم صورة لبطولة عامر بل لمستقبله أيضاً فمن بطن الوادي ظهر له الغادر فيما بعد وطعنه غدراً بعد أن قاوم الزناتي خليفة أياماً بلياليها .

رواية الاميرة سعدى لدى جابر أبو حسين

وتقول الأميرة سعدى لوالدها الزناتي خليفة مفسرة بسبب مجيء عامر بن ضرغام الى تونس وقتاله له على لسان الشاعر الشعبي المصري جابر أبو حسين :

« اسمع كلامي يا بوي ــ اوريك معنى دا كله ــ
أشرح لك يا بابه الحكاية ــ عامر يا بابه مكانش قاصد
قتال ولا جاي عشان حرب واصل ــ يا بابه انا عندي أهم
الاخبار ــ على جيتو مع الهلايل ... عامر يا بابه سبع
والباع طايل ــ عامر اصلو محدد وضافو ــ هوه في منزله
حودوا وضافوا ــ سنتين عزم القبايل ــ يعرفهم ويعرفوه...
في يوم طالع راكب له ركوبه وطالع يابه الى الصيد
والقنص ــ رأى البنات على العد ملمومين »

ثم تنشد سعدى ما جرى لعامر الخفاجي بن ضرغام بن فضل عند الماء وحواره مع الجازية مما يقترب من الرواية الحجازية فتقول بالصيغة التي ينشدها جابر أبو حسين ويعلق عليها الابنودي :

أول ما نبدي نصلي على النبي
نبي عربي شفيع لنا وضمين

أصلي على طه الذي جاء بالهدى
يوم القيامة شفيع لنا وضمين

تقول سعدى بنت سلطان تونس
ودموعها فوق الخدود نازلين

اصغي يا بايه في معنى قصتي
وكل الرجال لقولها سامعين

طالع يا بايه في يوم للصيد والقنص
وجد البنات عالعد ململمين

كل البنات قربت لعامر وسلمت
إلا بنيه تخمنته تخمين

سبلت غطاء الوجه وخبت دلالها
لها وجه نادي على عيون حلوين

شكم الجواد ملك العراق ووقفه
وغنى قصايد شعر موزونين

دي بنت مين يا جاز الطويلة الملفلفة
يا هن ترى يا جاز أبو دي مين

گلتله أبوها دياب الزغابي ابن غانم
بنات الزغابة العيون حلوين

بنات الزغابة اعلم ميدرى يا فتى
ميكدر يماسقهم إلا سلامه بطل العروبة أسد وقرم متين

تزوج بثينـه جاب منهـا مخيمـر
طـالع فتـوه والخـوال زينين

وثاني ناسـب زغبة اخويـا أبو علي
ملـك الهلايل سـيد السـلاطين

تـزوج بنوفلـة جاب منهـا بريقع
طـالع فتـوه أهلـه سـلاطين

واتسه يا عـامر قـد صابك الهوى
غـادر بـلادك مـدة وسـنين

واصبـر على البلوى واشرب مرنـا
وعش معـانا في البـلاد رهين

واصبر على البلوى لما توصل الهـدف
وغـادر بـلادك مـدة وسـنين

سمع الكلام عـامر قال آه يا بلـوتي
دمعـو نزل على الخد دم ثخـين

لا كل سـنه بعشـق ولا بعرف الهـوى
ولا كان قلبـي للصبايـا يلـين

أنا كنت ألـوم أهل الهوى في هـواهم
وقلهـم على ايـه مسـكومين

لمـا ابتليت بالحـب أنـا عـذرتهم
حسـيت قلبي والفـؤاد حـزين ۞

وهذه الرواية تعزز الرواية الحجازية في حديثها عن حب عامر لوطفـى بنت ديابـ •

عامر (النجع) في الشعر الشعبي المصري

يقول شوقي عبدالحكيم(٢٩) ان مأثورات الشعر الشعبي المصري تحفظ آلافاً مؤلفة من الأبيات حول قرار (الخفاجا) بالسفر مع الهلاليين ومنها :

يوم غرب النجع يا ما بكى درغام
قال بيض الليالي مضت واللي بقى صار عام
رايح تغريب يا بو دوابه وفايت الاصطبل والخيل فيه
ما بكى ضرغام وقال بيض الليالي
مضت واللي بقي صار عام
ما بكيت بنته دوابه وقالتلو
يابا أنا شايفة عينك عالسفر ما تزول
ضرغام أبوك كبر وأمك شوله عقلها حايزول
الغربة تربة يابا تقل الاصول وتزول

فقال النجع (عامر):

وبطلي يا دوابه مع الناس دول حانروح
العلام أخويه وصاحبي بالروح
ومكتوب على باب تونس قايمة فياللوح
تفنى الخلايق وكل العباد حاتزول

وهذا الحوار هو تطوير لحوارات سابقة ترويها السيرة وانشداد واضح من قبل الراوي الشعبي لموقف كريم من شخصية شعبية مساندة يريدها الحس الشعبي ويسعى الى إبراز صفاتها الايجابية .

ما الذي حدث بعد ذلك ؟ وما هي المتاعب التي صادفها الهلاليون خلال رحلتهم عبر الموصل وحلب والشام وفلسطين ومصر حتى وصلوا تونس ؟ ما هي أخبار الخفاجي عامر قبل أن يقف الموقف الشجاع الأخير ؟ ذلك ما سنعرض له في الفصل التالي .

الهوامش

(١) تغريبة بني هلال ـ مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح واولاده ـ ميدان الازهر ـ مصر ـ د.ت ص٢٩ .
(٢) المصدر السابق/ص٤٢ والملاحظ وجود الاسماء العربية داخل اسماء الاسرة الفارسية ومدلول اسم (ينذر المنذر) وهو جملة فعلية .
(٣) روايات من تغريبة بني هلال وحروب آل ضيغم ـ الدكتورة اليسون ليريك ـ م الفرزدق ـ الرياض ص٧٠ ـ د.ت .
(٤) سيرة بني هلال ـ شوقي عبدالحكيم ـ دار التنوير للطباعة ـ بيروت ـ ١٩٨٣ ـ ص٣١ .
(٥) تغريبة بني هلال ـ صبيح ص٦٢ .
(٦) المصدر السابق ـ ص٦٢ وما بعدها .
(٧) تغريبة بني هلال ورحيلهم الى بلاد الغرب ـ قصة ابو زيد الهلالي كاملة ـ مؤسسة المعارف ـ بيروت ط٢ ـ ١٩٧٧ ـ ص٦٣ .
(٨) تغريبة .. مط صبيح ٦٢ .
(٩) الملك (الامير) حسن .
(١٠) الزغبي هم بنو زغابه المتحدرين من ذرية جبير .
(١١) البوش : الغنم والماشية الاخرى .
(١٢) التغريبة ـ طبعة لبنان ـ بيروت ص٢٦ .
(١٣) المصدر السابق والجارية تصحيف لكلمة الجازية وهي نور بارق ـ أم محمد شقيقة الملك حسن .
(١٤) التغريبة ـ طبعة صبيح ص٦٣ .
(١٥) المصدر السابق ص٦٤ .
(١٦) المصدر السابق ص٦٤ .
(١٧) وردت (والورداري) خطأ في الاصل .
(١٨) يقول الاستاذ فوزي العنتيل في كتابه (بين الفولكلور والثقافة الشعبية) في فصل اغاني العمل ومأثورات السمر في مصر) وفي ص٢٨٧ ما يأتي:
« ونحب ان نورد نموذجاً آخر من السيرة الهلالية المقولة بفن المربع في الصعيد والتي تنشد بالمزاهر والدفوف والتي يرى المرحوم الاستاذ زكريا الحجاوي ان السيرة الهلالية بهذا الاسلوب أخصب بالاثارة الفنية من اختها المحكية على الربابة في بعض مواقفها ، وهذا النموذج يتحدث عن ابي زيد الهلالي حين خف الى نجدة (الخفاجي عامر) ملك العراقيين في

حربه مع (الخراسان) ملك العجم ومعه أبناء أخته يحيى ومرعي ويونس، ويشير الى الحب الذي نشأ بين دوابة بنت الخفاجي عامر وبين يونس:

دخلوا مدينة العراقين ونطب الولاية محاديهم

شافوا العدا جايين خراسان كان معاديهم
ابو زيد قدام يرسي ابو عقل في الراس راسي
حقك تسعة وتسعين كرسي قدام ديوان العراقي
طلت (دوابة) من فوق من روشن فاتحة طيقان
لابسة الحلق والطوق واللبه من كهرمان

انتهى كلام العنتيل والراي ان هذه (الحادثة) التي ترويها الاغاني الشعبية المصرية تحاول رد جميل الخفاجي عامر على الهلاليين فتجعلهم يحاربون منه ملك العجم ، وتصنع (معادلا موضوعياً) في حب دوابه ابنته والامير يونس . والواقع الذي ترويه السيرة الرسمية (طبعات مصر وبيروت وغيرها) ان يونساً كان مع مرعي ويحيى في الاسر لدى الزناتي — يوم دخل الهلاليون أرض العراق — ولكنها على أية حال نوع من الاضافة الدائمة على السيرة الهلالية وشخصية النجع — الخفاجي فيها .

(١٩) طبعة صبيح — ص٦٥ .
(٢٠) طبعة مؤسسة المعارف — بيروت ص٤٩ .
(٢١) في طبعة صبيح (في عنا ومصاعب) .
(٢٢) في طبعة صبيح (ولا لك فيها مال ولا أسباب) .
(٢٣) المصدر السابق — ص٦٧ .
(٢٤) د. عبدالعزيز لبيب — الفصيح في لغة السيرة الهلالية — مجلة المأثورات الشعبية ، العدد الحادي عشر ١٩٨٨ — ص ٥٠ — الدوحة — قطر .
(٢٥) طبعة صبيح ص٦٧ .
(٢٦) مصدر سابق — اليسون ليريك ص٧٠-٧١-٧٢ .
(٢٧) ليريك — ص٧٠ .
(٢٨) صبيح — ص٦٧ .
(٢٩) مصدر سابق — شوقي عبدالحكيم ص٨٠-٨١ .

الفصل الثاني

تغريبة الخفاجي عامر وقتاله

الخفاجي يقود عند مشارف حلب

يقول راوي (تغريبة بني هلال)[1] :

« ذهب بنو هلال من بلاد الخفاجي عامر الى حلب وكان حاكم حلب يقال له بدريس وكان صاحب خيل ومال وأبطال » ولكن الراوي لا يسلسل الموضوع هكذا بل ينتقل بنا في صفحات سابقة[2] مع حركة بني هلال من أرض العراق الى بلاد التمرلنك ملك العجم حيث يقف ضدهم ويحاربهم فيتم انتصارهم عليه حيث عينوا بدله وزيره دخان ملكاً على قومه .

بعد ذلك يرحل الهلاليون الى حلب ومعهم الخفاجي ، وكان ملكها ـ كما تروي الرواية ـ بدريس الذي أرسل جاسوسه واسمه (سابق) ليستطلع أحوال القادمين فيعرفه أبو زيد ويعطيه الأمان في العودة فيعود الى الملك بدريس غير مصدق بالنجاة ويقدم تقريره على هيئة قصيدة جاء فيها:

أنا رماني السير بأرض كبيسة بلاد الخفاجي عامر الصنديد
نظرت جموعاً يا أمير نزلهم تقول غماما أو كبحر مديد

ثم :

وقد جاءوا لعند الخفاجي عامر بأرض كبيسة والعراق قعيد
يا أمير يوم ينزلون بلادنا يخلو بلادك بلقما وهديد[3]

ومن هذا التحذير نفهم ان (سابق) قد وصل كبيسة وشاهد الهلاليين وهم يسيرون (كبحر) دون أن يعلم ان الخفاجي قد سافر معهم ، فيرسل – كما هي العادة – رسله المحذرة اليهم ، وتدور بينهم المراسلات الشعرية ثم تبدأ الحرب بين مد وجزر حتى يقرر الهلاليون الرحيل خلسة (تحت ستور الاعتكاف)[٤] لكن بدريساً – وبتحريض من وزيره – يرسل أمامهم من يقف بوجههم خلال الطريق بقيادة وزيره الآخر وقائده الخزاعي ، وهنا يبرز دور الخفاجي في هذه المرحلة إذ « سار الخفاجي عامر بخمسة آلاف من الفرسان الشجعان مع البنات والنسوان خوفاً من نكبات الزمان وطوارق الحدثان حتى وصل بالقرب من سراقب وتلك السباسب »[٥] وذلك يعني ان الخفاجي قد أختير من بني هلال لكي يكون قائداً للطليعة المتحركة فيما بقى الهلاليون خلفه عند مشارف حلب (بقيادة السلطان حسن وأبي زيد) ليدرأوا شر هجوم ما ، لكن الذي حدث هو العكس فقد ظهر الخزاعي بجيشه أمام الخفاجي عامر الذي اعتراه الانذهال « وخاف على الحريم والعيال فحمل[٦] هو ومن معه من الابطال والتقوا الأعداء بقلوب كالجبال وفي الحال انتشب القتال وجرى الدم وسال وكان الخفاجي كما تقدم الكلام من أشد فرسان الصدام فبذل في الحرب غاية الجهود غير أن عساكر الأعداء كانت أكثر فانصبت عليه فظفر الخزاعي ••• فبينما كان الخفاجي في أشد الاهوال وهو غارق في وسط المجال وعساكر الاعداء محيطة به من اليمين والشمال وإذا بفرسان بني هلال قد أقبلت ••• الخ »[٧] •

وباقي هذه الفقرة من المادة الدرامية معروف حيث ينتصر الهلاليون ويقتل بدريس ويحل محله ولده جمال بتعيين واختيار ومصالحة مع بني هلال الذين يرحلون عن حلب ليقعوا في مشكلة أخرى مع حاكم قبرص وهكذا حتى وصولهم الى أرض تونس •

ومن ذلك يتضح – بالاضافة للمسار العام للسيرة التي تريد اثبات قدرة بني هلال على محاربة الحاكم الظالم واقامة العدل في أي أرض وتنصيب

الحاكم الصالح ــ فان عامراً الخفاجي قد استطاع أن يبرهن على قدرته على القيادة ــ رغم كثرة ما أحاط به من أعداء ــ وان يقـاتل حتى أتته النجدة ــ عند مشارف حلب ــ دون أن يتخاذل أو يقع في الأسر كما وقع دياب بن غانم في قبرص ومعه أكثر من اثني عشر ألف فارس •

ــ في تونس ــ

وفي تونس يكون الأمراء مرعي وحسن ويونس في أسر الزناتي ويبـدأ الهلاليون بالتسلل وحصار العاصمة وبحربهم مع الزناتي ويبدأ معه خلافهم مع بعضهم بحيث وضعوا ديابا في المؤخرة لحراسة النساء والخيول والعبيد•

ويستبسل الزناتي ويقتل منهم ويقتلون منه ولكن لا أحد ينتصر مدة طويلة من الوقت ، ويسقط للهلاليين عـدد من الفرسان وكثير من القـادة والخفاجي عامر يراقب الموقف بوعي حزين وبانتظار متألم فدوره بعد لم يحن حتى اضطر الملك حسن لقتال الزناتي بنفسه بعد ما لم يجد أحداً من القواد يستطيع أن يقف أمام الزناتي •

وتدور المعارك أيامـاً بين الزناتي والسـلطان حسن دون أن يظفـر أحدهما بالآخر ويكون بنو هلال وسط حالة من الحزن والخـوف لأسباب ستتضح ، عندئذ يبرز دور الفارس العراقي ساعة الشدة •

قتال الخفاجي عامر للزناتي خليفة

يقول جامع كتاب (تغريبة بني هلال ــ طبعة صبيح) ص٢٠٧ ومابعدها
« فلما أصبح الصـباح وضاء بنـوره ولاح وطلعت
الشمس على الروابي والبطاح فبرز الزناتي للميدان ومحال

ضرب الطعان فأراد السلطان يبرز اليه فمنعوه قومه الامارة وقالوا نخاف عليك من الزناتي وأبو زيد ملسوع ودياب غايب وإن صار لك حادث تروح بني هلال سراً في الجبال فقام الخفاجي عامر وطلب الزناتي فمنعه حسن وقال أنت نزيل عندنا والنزيل ليس له حرب فقام الخفاجي وأقسم يمين عظيم إن لم ينزل للزناتي رحل بقومه عن بني هلال فتركه » •

هذا ما وضح في اليوم الاول الذي حاول فيه عامر مبارزة الزناتي خليفة وكان اليوم الذي سبقه قد تجسد في معركة ضروس بين السلطان حسن ملك الهلاليين والزناتي انتهت دون نتيجة ، وقد سبقت ذلك في الأيام السابقة معارك بين أبي زيد الهلالي والزناتي انتهت بأن منع السلطان أبا زيد من القتال خوفاً عليه لأنه سيفقد عند قتله واحداً من أبرز قواده ، وقد كان ضرورياً أن يخرج السلطان حسن لقتال الزناتي لا لأنه منع أبا زيد بل لأن أبا زيداً هذا قد لسعته أفعى وغدا مريضاً في وقت غاب فيه رأس التحالف الثاني وأمير بني زغبة الامير دياب بن غانم عن أرض المعركة لأنه كان يحرس (البوش) في (وادي الغبارين) والبوش هي (امدادات ومؤن الحرب من خيل وماشية وربما سلاح وعتاد وعبيد ونساء) كما يفسر ذلك شوقي عبدالحكيم(٨) ويذكر استناداً للسيرة ان عدد الرعيان والعبيد يبلغ ستة آلاف •

المهم هنا ان الخفاجي عامر يطلب من السلطان حسن الخروج للقتال فيمنعه لأنه نزيل لكنه يصر على ذلك مهدداً بالرحيل ومفارقة الهلاليين فيضطر الى الموافقة ، لكننا قبل ذلك نود أن نتوقف عند الرواية الحجازية التي تصور علاقة وطفى بعامر الخفاجي •

عامر ووطفة بنت ديـــاب

تقول الرواية الحجازية التي تنقلها الدكتورة اليسون ليريك[٩]:

« وصارت عليهم معارك حرب هم والزناتي خليفة وفاز الزنـاتي خليفة وركبوا بني هــلال يبون الصلح بينهــم ويجوزون من معارك الحرب وعقبت القوات الثانية وغارت على حلال بني هلال • يوم غاروا عليها اليامار ما حاضر غير الخفاجي عامر • قالت وطفى بنت ذياب : يا عامر يمدح لي فعلك وانا ما شفته • قال : يا وطفــى أنا والله ما لي مــع هالحلال لا ناقة ولا جمل وكل رحلتي من العراق من شأنك انتي لكن حبيني حبه ما ادري ان ارجــع من هالمركاض أو لا أرجع منه ، ودنقت عليه وحبته وشــافتهم مرة ذيــاب (ماهي أم وطفى) • يقول نصره الله عليهم وذبح اللي ذبح وشرد اللي شرد وفك الحلال كله انته يالخفــاجي عامــر ويوم رجعوا واليامار صايره معركة عقبهم قالوا من فــك الحلال؟ قالوا فكه الخفاجي عامر قالوا كيف فكه الخفاجي عامر اللي صار ماله لا ناقة ولاجمل؟ قامت مرة ذياب تطعن ببنته قالت متزوج بنتك عقب مشيته من العــراق وجميع ما اشــتهى حاضر على كيف ما يريد وبعذره لو يفادي عمره • وزعل ذياب من هالكلام وقالــت يا بنت (فعلاً ماهي متزوجة) روحي ندي بهالزمل الذي بهن مع الشعيب هذاك) • ».

وهنا نجد ان الرواية الحجازية تأخذنا الى تسلسل درامي آخر وخط صراع ثان سبق ان ذكرته هي والرواية التونسية حيث تتحركان على قضية حب الخفاجي عامر لوطفه وسفره من أجلها ، ولكنها هنا تتحدث عن حماية

عامر للأهل والبوش وخلال حرب بني هلال مع الزناتي (فيما تروي رواية صبيح ــ كما قرأنا) ذلك عند محاولة بني هلال الخروج من حلب وترك حرب حاكمها البدريس ... والمهم هنا ان الرواية الحجازية تجري حواراً شعرياً بين دياب (الذي لم يكن حاضراً أساساً يوم خرج عامر لقتال الزناتي) وابنته إذ يقول دياب لها :

يا حيف يا زمل عصاة آل عامر
اشوف الخنا من فوقهن يشال
انا كل ما جيت الخفاجي عامر
يامار عندك دالع جبال

فتقول وطفى :

يا من لشلفا ذياب بن غانم	حيثك عن العلم الزدي تسال
....	....
علي الكذا ما ذاق مني كود حبه	والقلب يرجف والدموع همال
يوم خذا الاتراك حفه مركبي	وانتم ما حاضر منكم ولا خيال(١٠)
هذي يعاقبها وهذي يجيبها	وهذي تسهجنا بلا خيال
تسمع دوي الخيل من كل يمه	واثره عامر رشيد الفال
ماريا يبه زوج دفاله موسى	وانا عقب عامر ما اريد رجال
ما تفتكر للجازية أم محمد	تسري لها حافي بغير نعال

وهنا يظهر من موقف وطفى انها لا تنكر حبها للخفاجي ولكنها تنكر انها عملت (فعلاً رديا) وانه لم ينل منها غير قبلة (والقلب يرجف والدموع همال) واله دافع عن (البوش) كرجل ضد (الاتراك) ، وكلمة الاتراك هنا تعني جيشاً غير عربي وربما كان جيش بدريس . وهنا يظهر ان هذا (الموتيف) الشعبي قد وضعه الراوي الحجازي في غير موضعه فرجال الزناتي عرب من آل حمير ، والمهم كذلك ان وطفى لا تخفي حبها بل تقول

بصراحة (وانا عقب عامر ما اريد رجال) ولا تكتفي بذلك بل تذكّر والدها كيف كان يسري ليلاً الى الجازية (حافي بغير نعال) فيقول ديـاب (أنـا ظلمت ابنتي) وينشد :

وانا أبوك يا وطفى تقاضي مرادك   وانا زبن الخيـل إن طبهن جفـال
ان ملاقـا النفس لنفس تودهـا   ان بها الرعفـا وطيب اطفـال[11]

ويقول الراوي « وزوجها إياه وزوج أخت الخفاجي عامر دفاله ولده موسى » وبهذه المصاهرة المفترضة يكون دياب بن غانم قد وثق علاقـة آل زغبه مع حاكـم العراقين لكن دياباً يفترق عن أهله ساعة الشدة ويكون في الخلف (مع البوش) ويهددهم بالذبح إن جاءوا لطلب نجدته بعد أن نحوه عن القيادة • (وهنا تكون الروايات متطابقة حول ذلك رغم ان الروايـة الحجازية تصر على ايراد كلمة الترك) هنا وتستمر في الوصف لتقول :

« ومساء اليامار انكسروا بني هـلال وقف لهم عامـر الخفاجي ما عاد أحد تصدى جواده حامي الجراير كلها » • ثم تورد « وثمان ليال والحوكة دايره رحاها ركاهم عامـر الي نكست الخيل ركاها عامر في نحورهم وذبحـوا كـل فرسان الهلالات وذبح منهم الزغابا الثلاثة وذبح منهم عامر ويوم قتل عامر الخفاجي قالوا تعالوا يا بني هلال ما سـاد موقف عامر إلا ذياب حنا في شدة لكن ارسلوا لذياب »[12]

فيرسل سعد الهجين الى دياب فينشد هذا له ــ بعد أحداث كثيرة ــ عن تفاصيل معركة الخفاجي عامر بادئاً بالمهـرة ــ اسوة بما قاله عـن باقي الرجال ــ قال دياب سائلاً :

الشذك عن مهرة الخفاجي عامر   هي من جيـاد الفلا والا ثبارهـا

قال سـعد :

تنشدني عن مهرة الخفاجي عامر   خلاف التوالي ما في الا هجازها[13]

فيعرف ان صاحبه قد مات فيسأله عن بدير القاضي ثم يعود الى الخفاجي ليسأله فيجيب سعد :

تنشدني عن ولد الخفاجي عامر ... لوا خراب الدار عقب اعتمارها
ما جيتك إلا أنا مغسله ومكفنه ... وجال عن بيض الثنايا غبارها
والله صارت دون الخفاجي عزكه ... ما يتميز ليلهـا من نهارها
ثمان ليال موقف الترك عامر ... يوم الحص من حرها واحترارها
ما عذر الصفرا ولا حل سرجها ... ولا قبل العذرا على جال نارها
ويضرب الخيل بدق بالقنا ... يعقب سباق الخيل يلحق بثارها

وهنا يتضح من وصف سعد الهجين ـ حسب الرواية الحجازية ـ ما فعله عامر الخفاجي الذي (اوقف الترك ثماني ليال ولم ينزل عن فرسه) وهو بعد ذلك كما يضيف سعد قتل تسعين قائداً (شيخاً) وتسعين فرساً وتسعين حصاناً حتى قتل فودعه بنو هلال وفيهم تسعين عذراء منهم وطفى (الذي كان الراوي الحجازي قد ذكر ان والدها قد زوجها لعامر) وهذه هي الأبيات كما رويت :

وتسعين شيخ قتلوا دون عامر ... وافتاخهم بيمانهم عن يسارها
وتسعين بكره عقرت عند عامر ... مختارها عقارها من بكارها
وتسعين سابق عقرت عند عامر ... حذفت على قبر الخفاجي كسارها
وتسعين عذرا تضحي الشمس خدها ... تودع على قبر الخفاجي مزارها
منهن بنتك يا ذياب بن غانم ... قليل تخطيها الى بيت جارها
تاصل يا قبر الخفاجي وتنثني ... وتهل على ولد الخفاجي اعبارها(١٤)

هذا وسنقف في الفصل التالي عند مشاهد الصراع بين عامر الخفاجي والزناتي خليفة وعلاقات العراقيين من آل عامر بالهلاليين من جهة وبأهل تونس من جهة ثانية مؤكدين على قيمة هذه الشخصية الفولكلورية العراقية ضمن السيرة الهلالية الكبرى** .

الهوامش

(١) التغريبة ـ ط صبيح ص٧٧ ٠
(٢) المصدر السابق ص٦٧ وما بعدها ٠
(٣) المصدر السابق ص٧٩ ٠
(٤) المصدر السابق ص٨٨ أي تحت جنح الظلام .
(٥) المصدر السابق ص٨٨ ٠
(٦) المصدر السابق ص٨٨ في الاصل (فجعل) والاصح (فحمل) ٠
(٧) المصدر السابق ص٨٩ ٠
(٨) شوقي عبدالحكيم ص٣٧ ٠
(٩) روايات من تغريبة بني هـــلال وحروب ال ضيغم ـ الدكتورة اليســـون ليريك ـ الرياض ـ د٠ت ص٨٩ ـ ط١ .
(١٠) المصدر السابق ص٩٠ ـ تلاحظ كلمة الاتراك ٠
(١١) المصدر السابق ص٩٢ ٠
(١٢) المصدر السابق ص٩٣ ٠
(١٣) المصدر السابق ص٩٦
(١٤) ليريــك ص٩٨ ٠

** باسم عبدالحميد حمودي ـ الزير سالم ـ دار الشؤون الثقافية العامــة ـ الموسوعة الصغيرة ١٩٨٩ ـ ص١١٧ ٠

الفصل الثالث

أيام الصراع ونهايته الدرامية

ـ اليوم الاول ـ

تضطرنا كثرة روايات هذه السيرة الجميلة الى الخروج أحيـانا عن مقتضى الرواية الدرامية وسياقاتها للتعليق أو للافادة من رؤية رديفة ، وقد تعرضنا في الصفحات السابقة الى قصيدة سعد الهجين وهو يروي خلالهـا لدياب (ذياب) بن غانم (غنم) صورة مقاتل الهلاليين وحليفهم عامر الخفاجي وعجز السلطان حسن عن الوقوف في وجه الزناتي خليفة[1] ، دون أن ننسى ذكر ما حصل في اليوم الاول من حرب عامر الخفاجي مع الزناتي حيث أصر عامر على الخروج لقتاله ومنعه السـلطان حسن (لأنه ضيف) لكن عـامراً (حسب طبعة صبيح ص٢٠٧ وما بعدها) يهدد السلطان بالرحيل فيتركـه كارهـاً .

ـ اليوم الثاني ـ

يقول صبيح[2] : « وثاني يوم دق الزناتي طبله اليالميدان فبـرز اليه الخفاجي عامر فالتقوا البطلين[3] كأنهم جبلين وزعق فوق رؤوسـهم غراب البين » ويتضح من ذلك انهما قد حـاربا بعضهما طيلة النهـار حتى أعلـن

الغراب ســاعة الفراق فافترقا بين فرح الهلاليين لصمود عامر وخوف القائد الزناتي ورهطه من هذا الصمود •

ـ اليوم الثالث ـ

يقول الراوي[4] « وفي اليــوم الثالث كلّ الزناتي وولى هــارب من قدام الخفاجي وكان عند الزناتي خطيب يسمى مطاوع فقال الزنــاتي باكر الزن اليه وانا مستخبي بين الزرد وإن انكسرت قدامه فيلحقك حتى قدامه يفوتني فاجيله من وراء واطعنه من قفاه واعدمه الحياة » •

ـ اليوم الرابع ـ

ويبدو ان هذا الحوار قد تم في ليلة اليوم الرابع وهي الليلة التي كان فيها الخفاجي نائماً فاستيقظ حالاً مرعوباً واستدعى ابنته وامــرأته وأنشــد يروي منامــه :

يقول الخفاجي والخفاجي عامـر	رأيت منـام منه عقلي طــار
رأيت شجرة ثانية في وسط دارنــا	قطعها ســريعاً يوسف النجــار
وقــدم منشكه وحفر شـلوشها	وقطعهــا بالقــادوم والمنشــار
وأمس أرسل الزنــاتي يقــول لي	كلاماً أكيداً وضــح الأشــرار
يقول لــي يا أمير اتــرك قتالنــا	وبطّل عنــا جملــة الاضــرار
وعــدلي بالمــال والملك والعطــا	يرغبنــي في معــدن وابهــار
فما ردت في هــذه العطايــا دوابة	وارمت في قلبي لهيــب النــار
يخاف انهم خسبوا حسابي جميعهم	وقــوم الزنــاتي كلهم مكسـار
لأن منــامي يا دوابة راعنــي	وارمى في قلبــي لهيب النــار
ولكن مهما يفعــل الله جــائزاً	الله تعــالى واحــد قهــار
قال المســمى الخفاجي عــامر	من ذا المنــام بقيت كالمحتــار

ثم تستمر القصيدة بعد ذلك موضحة اجابة دوابة بنت الخفاجي رغم ان الراوي يرويها بشكل مستمر مع المقطع السابق بحيث يداخل بين الانشادين والشخصيتين المنشدتين ناسياً دوره الأساس في الرواية والانشاد:

ردت دوابة بنت عامر تقوله[٥] … اترك خلية[٦] لا تزيدن أشرار
انا خائفة ذا المنام يعيبنا … ويرمي لنا بالهم والاضرار
نخافه عليك من الزناتي خليفة … لأنه أمير بالملا غدار
له سطوة بالحرب ما شفت مثلها … يشبه لسبع الفلا غدار
ما شفت قوم هلال فيما جرى … خلى دماهم على الوطا[٧] فوار
فاهجم ولا تمغ[٨] واقعد وامتد … يا مصعب للفرقة وبعد الدار
ما قالت دوابة والبكا حيلها … يا حسرتي إن راح عن الدار

ويبدو البيتان الأخيران متناقضان مع روح وتوجيه الأبيات الأخرى التي تخيف بها دوابة والدها من الزناتي فها هي هنا تدعوه للهجوم ومن ثم تندبه حياً لكن الراوي يوضح كل ذلك فيقول : « فلما فرغت دوابة من كلامها وأبوها يسمع نظامها قال يا بنتي اذا ركبوا بني هلال ماذا يكون الجواب وانا حالف يمين اني احارب الزناتي عشرة أيام فقال له عمل ضعيف يعذروك »[٩] وفي الصباح عمل عامر بنصيحة ابنته • ويصور الراوي ما حدث عند ذلك :

« بني هلال دقوا طبولهم وركبوا خيولهم وفقدوا الخفاجي عامر فما وجدوه بينهم فسألوا عنه ـ السلطان ـ حسن فقالت الجازية أنا أروح اليه[١٠] فراحت تلاقي دوابة قائمة تبكي فسألتها عنه قالت أصبح مريضاً فرجعت أخبرتهم فقال حسن : الخفاجي أقسم يمين انه يحارب الزناتي عشرة أيام وحاربه ثلاثة أيام بقى عليه سبعة أيام فكان حاضر أمير اسمه ظريف محب في الخفاجي فقال : أنا أروح اليه أنظر

معانيه فراح الى عند الخفاجي فلما وصل كان نايـم فجلس على حفيلة وقال له حول يا خفاجي فحولعن جواده فسـأله عن حاله فأشار الخفاجي يقول »[11]

وهنا نلحظ صورة من تناقض الوصف في الرواية فالمفترض أن يجلس الخفاجي (أو ينام) على فراش (حفيلة) وان يقول الخفاجي لظريف ـ بعد السلام ـ « حوّل » وهذا ما فعله فينزل هذا عن جواده ليحاور الخفاجي، لكن الراوي يضع الخفاجي مرة على (حفيلة) وأخرى على جواده (ليتحول عنه) خطأ ثم يرتكب الراوي خطأ آخر سبق أن قام به طيلة روايته لانشاد الشعر بين شخصيتين فهو يبدأ الأبيات الآتية بصوت الخفاجي ولكنه يقطعها في البيت الثامن لتروى على لسان ظريف دون أن يشير الى ذلك في المقدمـة ويضع الصورة الشعرية الحوارية أمامنا على الوجه الآتي:

قال الخفاجي ولد ديرغـام عـامر ... يا ظريف حوّل تعالـي اضيف
وحيلي انخلى عني يا أمير وانقطع ... وغـاد جسمي يا أمير تليـف
مرعـوب مما نظـرته في منـامي ... وقد عدت من هذا المنام وجيف
رأيت شجرة طالعـة وسط دارنا ... انـا كـل عرس تائف وظيـف
جـانا يجري وقطـع غصـونها ... واحرقهـا بمنشاره تحريـف
وشفت الزنـاتي راح مني هزيمة ... كنت عليه بالطـرد جنيف[12]
خـايف يكون دبـر علينا حيلـة ... ومهما تشـوره ما به تخليـف
فرد المسـمى ظريف وقـال لـه ... ألا يا خفـاجي لا تكن مخيف
شـد واركب الزنـاتي وصادمه ... واخاف تصبح بين الأنام مخيف
يا أمير إن العمـر من رافع السماء ... مكمن علينـا ليس منه مخيف
مـا دام لك أجـل ما قط تقتـل ... ولو كنت نازل وسط بحر مطيف
حياة الفتى موتـه بظهر جـواده ... بيـوم يكون الريق فيه لشيف

يقتل يكسب الحمد والثنــا يبيض لوضه وثنــاه نظيــف
انهض ولا تخشى المنــايا جميعهــا والا غشــينا بالذل والتخويف

ونجد (الحكميات) والايمان بالقضاء والقدر صورة تبدو واضحة في:

١ــ ان العمر من رافع الســما
٢ــ حياة الفتى موته بظهر جواده
٣ــ لا تخشى المنــايا جميعها

ونجد كذلك ان الخفاجي مقابل حماس ظريف يعيش صورة تلبائيــة للحوار الذي جرى بين الزناتي خليفة وخادمه الخطيب حيث يقول « خايف يكون دبر علينا حيلة » ونجد كذلك ان حلمه الليلي قد دفعه لهذا الاعتقاد لكنه يتغاضى عن كل مخاوفه وينهض (دون أن يخشى المنايا جميعها مخافة أن يتهم بالذل والخوف) ويصف الراوي ما حدث بعد ذلك بالقول(١٣):

« فلما فرغ نظيف من كلامه والخفاجي يسمع نظــامه
وثب كالأسد وشدّ على جواده وتقلد بالحرب وســار مع
ظريف فعندها زغردت البنات ودقت العماريات وحين شافه
الزناتي أنشد يقول :

يقول الزنــاتي من فؤادي معمــر نيران قلبــي زايدات وقادهــا
انــا الخليفــة بالحروب مجــرب لــي سيف بالخيل انا رادد هــا

ثم يوضح انه أرسل رسالة للخفاجي يغريه فيها بعدم قتاله فيرد عليــه الخفاجي بما يفيد انه يرفض المساومة وخيانة الأصدقاء ويهدده بالموت لأنه قام بشراء الحرب وينشد (بالصيغة التي أرادها الراوي) :

رد الفتى المسمى خفاجي وقال لــه نار الحرب أنت قائم بشرارها
ارسلت لك مكتوب كون صديقي وتعطيني تونس وكل جدارهــا
ما راد اخون العيش يا أبو ســعيد أخــاف ترخص عندنا أسعارها

أو لا اكون الخفاجي عامر في جاه صغارها وكبارها
أصبح هزيل في هلال ممسخ ويكشفون عروضها وصخورها
لكن اليوم جيت الى حربك لا بد أسقيك كأس مرارها

ـ مقتل الخفاجي ـ

يقول الراوي :

« فلما فرغ من كلامه التقوا الفارسين في حرب وصدام وساروا في حرب شديد يفتك زرد الحديد فانفك عزم الزناتي من شدة حربه فولى هارب وللنجاة طالب وحكم ضربه نحو جناين الورد وكان الخطيب من بين السجايا وماسك الرمح بيده فاذا بالزناتي والخفاجي لاحقه فطلع الخطيب طعن بين كتفيه خرج يلمع من لوحيه فرماه قتيل وفي دمه جديل » .

وهنا يتحقق المخطط الذي وضعه الزناتي لخادمه مطاوع الخطيب ليلة اليوم الرابع الذي قتل الخفاجي غدراً وتتحقق أيضاً تفاصيل حلم الشجرة المقطوعة المرعب الذي رآه الخفاجي في نومه واضطر الى ادعاء المرض ، وتمضي الأحداث في سياقها ويحتدم القتال بين الجمعين ويحاول ظريف قتل الخطيب لكنه يقتل جواده ويخلصه الزناتي من بين يديه .

ـ الرواية الحجازية ـ

إن الرواية الحجازية الخاصة بمقتل الخفاجي والتي تنقلها الـ ونليريك في فقرة (تونس الخضرا) لا تتوسع في تفاصيل القتال لكنها تقدم لنا

الخفاجي مخططاً عسكرياً بارعاً إذ يحلل سر مقتل الهلاليين فرادى عن هجومهم على أسوار تونس فيقول الراوي(١٤) :

« وتدور المعركة رحاها صباح ومساء اليامار انكسروا بني هلال وقف لهم عامـر الخفاجي : ما عاد أحد تعـدى جواده حامي الجراير كلها . هذا ولا وش حاطين ؟ حاطين حفور مطوقين بها على الديره ووساع خيلهم مدربة عليهـا وخيل بني هلال خيل بدو تكش من الحجر الصغير وهذولا مدربينها على الحفور تقفز لها وحاط له بول خيل معاطي في زراج الرمح ... ثمان ليال والمعركة دايره رحاها عامر الى نكست الخيل ركاها عامر في نحورهم » .

والواضح من ذلك ان عامراً منع بني هلال من العبور فرادى واستطاع بذلك الصمود ثماني ليال حتى هجوم الزناتي « وذبح منهم الزغـابا الثلاثة وذبح عامر ويوم قتل عامر الخفاجي قالوا تعالوا يا بني هلال ما سـاد موقف عامر إلا ذياب » وبدأوا بعد ذلك بالاتصال بذياب بن غانم والانصياع الى شروطه بعد روايات سعد الهجين له . وهنا يتضح ان الراوي الشعبي التي لا تذكر ليريك اسمه تحفظاً يقوم باختصار الرواية لكنه يشدد على شـجاعة الخفاجي وخططه وقيمته القتالية التي لا توازيها إلا قيمة فارس مثل ديـاب بن غـانم .

ــ مرثية دوابة ــ

وعندما نعود الى رواية صبيح الاساسية نجد أن الأمير ظريف يحمـل الخفاجي الى بيته وينشد على لسان دوابه :

قالت دوابة(١٥) دمـوع من مآقيها نيـران قلبي من يقـدر يطفيهـا
جادت علينا سـليما من نوايتهـا واسقت لعامر شـربة من أوانيهـا

فابكت دواية دموعهـا لأجل والد | ها بنت الخفاجي من يقدر يبكيهـا
يا حيف رحنا ما شـفنا منازلهـا | يا حيف يا بـدار العـز نخليهـا
أنا دواية[١٦] أبو (ابي) عامر الماجد | انشد المكارم وقد شـيد مبانيهـا
قد كان ملـك في أرض العـراق | له كم كبه[١٧] من هموم الدهر يجليها
يا رب البين شـتت لمومنـا[١٨] | حـول الليالـي تجهزنـا لياليهـا

وبعد هذا الاستذكار والحزن تصف مقتل والدها فتنشد :

جاله مطاوع على شبه مبرشمة[١٩] | تشبه لريـم المـلا السرج محليهـا
طعنه بحربـه طوال الليل يسقيها | راح عامـر طريح الفراش سـاليها
جاله ظريف سريع من فوق سابقه[٢٠] | ضرب مطاوع ضربة جامـدة فيها
واضحى والـدي بالعري منطرحا | اطن عـدنا الارض والشرن تفنيهـا
من ذا يواصـل اخبـار لاهل | نا وعلام عامر ترى من عاد يحميهـا
ما قالت دواية ونار القلب مشتعلة | على انواهـا وعريبهـا وتاليهـا

ـ وصايا عامر الخفاجي ـ

لأبطال السيرة الهلالية ميزة خاصة عند المـوت وانت تقرأ ذلك كلما وقفت على مقتل مقدام منهم ، ذلك انهـم عند الموت يجلسون (مجدداً) ليقولوا شـعراً وأنت تلمس ذلك ابتداءً بالتبع حسان في الحلقـة الاولى وانتهاءً بأولاد الشهداء وقد أفاق الخفاجي ــ كما تروي السـيرة ــ بعد انشاد ابنته ليوصي قبل موته ولينشد قائلاً :

يقول الخفاجي بن درغـام عامـر | بدمع جرى لا أظن مثله مدامع
نيران قلبي كلما أقـول تنطفـي | يهب لهـا جوا ضلوعي لدايع
أنا مثل صقـر رابيـا تحت عشه | من المحل جابته بروق اللواقع
نسى وكـره لما طـلع من بـلاده | وخلى في وركه فروخ الجوازع

يبات ويسري طالب الصيد العـلا يمنع حتى ما ترى الوقد جامع
وإن كان هذا الطير ضيع وكـره وراح على ذكره مديد آل سايع

وهنا يبدأ الخفاجي عامر حكميـاته ووصاياه فيوحي بالذهـاب الى الكرام (الأجواد) إذا مال الدهر بانسان وبأن ينزل في بلاد هادئة (رتيبة) ثم يصف أهله بالطيور التي قد تأتيه لتخفف من وجيعته وينتقل الى ابنته ليطلب منها أن يكون قبره كبيراً يليق به وبأن يبعثوا لأهله لكي يعلموا به فلا ولد بقي لهم بعده ثم يختم مرثيته لنفسه بمخاطبته ذاته بطلاً قومياً سـار من العراق الى مصر ومات في تونس فيقول :

إذا جفـاك الدهـر يـوم بقربـه امال عن الأجواد إن كنت ضايع
ولا تنـزل إلا في بلاد رتيبة بلاد العدية حولها السم ناقع
وشـبابها تنقل السيف مع القنـا على كل طافح يرعب الخيل قارع
وشيوخها ترمي العـدا في المهالك بالروح ما هو بالمسهمات القوانع
قولـوا للطـير الذي في بـلاده أيضا طيور قد تجينـا تواجـع
ما جاك يكسب الحمـد والثنـا تجيني وتأتيني بفعـل رواجـع
يا دوابة إن كانت دنت منيتـي فاوصي ظريفاً يجعل القبر واسع
وبعد مـوتي ابعثوا الكتب لأهلنا عسى الخـير يجيكم مسـارع
ولا أظن خبر يأتيـك من بـلادي بلادي بعيدة سهلها والبقـائع
أبي وأمي كيف ترى حـالهم ينتظروا رجوعي ولست براجع
لا ولـد من(٢١) بعد مني بقى لهم دعوهم بعدي يسكبون المدامع
وقولـوا لهم عظـم الله أجركـم ولدكم عـامر عند ربه مطـاوع
أوصيكم يا حسـن يا هـلالي دول يتـامى ما لهم من مدافع
أنت شفوقاً(٢٢) على اليتامى ومحسن يعطيك ربك عاليات المواضـع
يا أيها الطـير الذي طار بالفـلا تسما(٢٣) الى الدهر الذي بك مطالع
تأكل ربيع بأرض مصر وزرعهـا وتبيض بأرض العراق المواضع

سلم على أبي وأمي وقل لهـم يرضوا علينا في صلاة الجوامع
واشـهد ان الله لا رب غيره فهو واحد وما له من نيـازع

ويقول الراوي[٢٤] « فلما فرغ من قولـه شهق شهقة واحدة سـلم الروح لله » وهنا تصيح النســاء ويكسر الرجـال بقيادة السلطان حسـن السيوف عليه قبل أن يواروه التراب كبطل شهم مات غريباً مغدوراً وتنصرف الرواية الاساسية بعد ذلك الى رواية تفاصيل الصراع بين الهلاليين والزناتة كصراع بين نمطين وعقليتين ، عقلية البـدو وعقلية الحضر كما يصورهـا بعض الرواة وعقلية البحث عن المكان والهوية كما نريد الافصاح عنهـا ، ذلك ان الصيغة العامة لحركة مسير الهلاليين من الجزيرة كانت حركة تطمح الى تحقيق قيام دولة لهم تقيم العـدل ــ وقد فعلت في عديد من الاقطـار التي مرت بها ، ولكنها ــ عند انتصارها على الزنـاتي ــ لم تستطع اقامـة العدل داخلها وبرز منها من استبد وقتل وغيرهما مثل دياب بن غانم فظلت حركتها الدرامية حركة ثورية تفني المتجبر لتقيم الحاكم العادل الذي تظـن فتفشل في الاختيار لتعيد الكرة •

الثـأر للخفاجي

هنا لا بد أن تتذكر أن عامراً قد طلب في وصيته اخبار أهلـه بموتـه ولا بد أن نذكر أن الزناتي خليفة بعد مقتل عامر قد هزم الهلاليين وقتـل منهم القاضي بدير وأخـاه وغيرهما من الفرسـان فاضطر الهلاليـون الى الخضوع مدة قبل أن يصل الأمير دياب اليهم من وادي الفضا •

وتقول الرواية المكناة بـ « الدرة المنيفـة بسيرة العرب الحجـازية » الصادرة عن دار الطباعة اليوسفية بالقاهرة دون تاريخ ان ثلاثين ألفـاً من عرب خفاجة بقيـادة الأمير درغام قد وصلـوا أرض تونس[٢٥] واتصلـوا

بالهلاليين الذين فرحوا وعرض كل واحد منهم ضيافته باصرار لكن الأمير درغام ينشـــد :

انا اللي يضيفني ويجبر بخاطري   يجيب لي قلعة من بلاد المغـــارب

ثم يصف الراوي حركة الخفاجيين :

وسـار الملك درغام ويا قرايبه   الى وسط الميدان دقوا الطنايـب

ومقدمهم حمـاد جيد ومنتسب   يبيع عزيز الروح شجيع الطنايب

ثم (تجهزوا لأخذ الثأر وهو ثأر الخفاجي عامر رحمة الله عليه وعلى كل من مضى من أموات المسلمين)[٢٦] ثم أرسل أبو زيد قصيدة للزناتي يعلمه بقدوم آل خفاجة ويقول فيها :

أتاكم الملك درغام مقدم خفاجة   ومعه ثلاثين الفه رجـال تمـام

وولد اخوه حماد مقدم جيشه   اتوكد لأخذ النار بضرب جمـام

لكن الزناتي يورد في جوابه رقماً آخر لعددهم إذ يقول :

اربع تسعينات ألـوف عددهم   من غير غلمـان لهم واتبـــاع

وهو يشيد بهم ويفخر بقتل ملكهم عامر (ربيع المنايا) ، وتبدأ الحرب في الصباح ويخرج حمـاد ابن أخ درغـام لقتال ثمية (تمية) ابن الزنـاتي فيصرعه ثم يقتل الأمير سليمن بن مطاوع ويعود منتصراً ليستقبله الأمـير (السلطان) حسن شاكراً ولينبئه بأدب أن قتل الزناتي سيكون على يد دياب وان الله سيعوضه عن فقد عامر فيتحرك الخفاجيون الى بيت عامر لتستقبلهم ابنته دوابة منشدة داعية الى ترك هذه البلاد الـ (نيتر ما تريدها)[٢٧] التي فقدت فيها عزيزها ووالدها ثم تصور الرواية وقائع المراسلات بين ديـاب بن غـانم وأهله حتى عاد اليهم واستقبله والده موبخـاً فيما استقبلته بنـات أمراء الهلاليين ومعهم دوابة بنت عامر لينشدن أمامه ويطالبنه بأخذ الثـأر وهن هدية بنت نصر بن شادب وهلا أخت السلطان وفتنة بنت القاضي بدير. ثم دوابـة التي أنشدت مفتخرة بوالدها الذي حجز الزنـاتي عن ضعـون الهـلاليين :

ولا أبويه يحجزه عن ضعونكم   لراحوا الهلاليين منه شعاب[٢٨]

ثم يبالغ الراوي في صورة هجوم الزناتيين على الخفاجي على لسان دوابة :

فرمحوا على أبويه ثمانين مايه   ومايه ومايه يضربوا النشاب

وتصور استنجاد والدها به فيعدها دياب بن غانم خيراً ثم يزور دياب مسرح القتال والعيش فيرى قبراً لآل حمير وآخر لبني هلال فيسأل عنه فيجيبه أبو زيد (انها قبة الخفاجة عامر) فبكى دياب وهدد الزناتي وأنشد قائلاً[٢٩] :

أنا أول ما نبدي نصلي على النبي   نبي عربي مالي شفيع سواه
يقول أبو موسى دياب بن غانم   بدمع جرى فوق الخدود قناه
على فقد أمير كان عيهور خيلنا   يسمى الخفاجة من فروع علاه

ثـم :

قعدنا ضيوفه سبعمائة ليلة   ما عاب فينا ولا نزلاه
ويسأل عن المحتاج إن قل ماله   وإن جه شاعر أكرمه واعطاه

الى بقية القصيدة التي يشيد فيها بمفاخر عامر ويعرض بالزناتي الذي أسر الأمراء ليسير بعد ذلك الى قبور الهلاليين وكثيب دم الفرسان .

هنا تأتيه سعدى بنت الزناتي لتفاوضه وتطلب منه الرحيل لكنه لا يستجيب ويذكرها بقتل والدها لأمراء الهلاليين وفرسانهم ثم تدور رحى حرب رهيبة بين البطلين يكثر فيها القتال وقول الشعر والرسائل المتبادلة ويجري ذكر الخفاجي عامر كفارس صنديد داخل هذه الرسائل والقصائد[٣٠] حتى يقتل دياب ملك تونس الذي ينشد رائيته الشاملة التي تنطوي على الشواهد التأريخية والاحكام والتأملات وقد سامح دياباً على قتله !! فيما تمضي السيرة الى غايتها الدرامية لتصل بنا هذه الرواية الى حالة أخرى لآل عامر الخفاجي .

ونفضل هنا أن نقف عند هذه التفاصيل مرجئين بحث النزاع الذي حصل بين دياب والخفاجيين على ابن عامر المفترض وكيفية عودة آل عامر الى مصر ثم العراق الى فصل آخر وهي أمور لا تذكرها سوى طبعة (الدرة المنيفة) فيما تخصص اليسون ليريك فصلاً عن شوله أم عامر الخفاجي .

الهوامش

(١) تروي اليسون ليريك في الصفحات ٩٣-٩٩ حواريات سعد الهجين مع ذياب بن غانم وهو يستنجده ويطلب منه العودة الى اهله لانقاذهم من بطش الزناتي خليفة وفي ذات الوقت يصف بطولات عامر الخفاجي عند مجالدته للزناتي بالقول في البيت الثالث (ص٩٧)

والله صارت دون ولد الخفاجي عركة ما يتميز ليلها من نهارها
ثمان ليال موقف الترك عامر يوم الحصى من حرها واحترارها

ثم تحلل ليريك في خاتمة البحث التطورات اللفظية التي طرات على هذه القصيدة وغيرها لتقول في ص٢٩٦ بعد طرح الامثلة الاخرى :

« ان خطا الراوية قد ياتي بسبب اختلال التذكر او الاخفاق السمعي مهما كان صغيراً ، فان تراكمه في الشعر المنقول على مر الزمن حتى يحدث فيها تعديلات بنائية أو لفظية أو معنوية كبيرة في القصيدة ، وربما يكون خير مثال لتفاقم الخطا البسيط في القصيدة التي يرد فيها الرسول على اسئلة ذياب ويصف المعركة الضارية التي قتل فيها الخفاجي ويقول احد ابياتها :

والله صارت دون ولد الخفاجي عركة. ما يتميز ليلها من نهارها

وفي روايتين يروى عجز هذا البيت :

ما ينعرف حصانها من مهارها

وهنا ربما يكون اخفاق الراوية السمعي قد ادى الى اخذ كلمة (مهارها) فاكمل من عنده (حصانها) ومن خلال عملية الارتباط الذهني نجد ان هذه الرواية الشاذة قد انتقلت تحت الخطا التراكمي الى رواية اخرى لبيت تال للبيت المشار اليه الذي يروى في احدى الروايات على النحو الآتي:

وتسعين سابق تدوت عند عامر مختارها عقارها من مهارها
تسعين صفراً عقرت عند عامر ما ينعرف حصانها من مهارها

ففي الرواية الاولى لهذا البيت نجد كلمة (من مهرها) ونعتقد بانها

لباقي الشطر من البيت المذكور وهذا المثال وغيره تقدم ما نعتقد بأنه دلالات على نظام تحول الشعر العامي المحفوظ والمروي شفاهة عبرالأجيال. (قيامت كذلك) لكونها مطابقة لعبارة البيت المذكور آنفاً في وصف المعركة و(قد) ادت الى ارتباط ذهني لدى الراوية ونتج عنه استدعاء لا ارادي

(٢) ص٢٠٧ .

(٣) فالتقى البطلان كأنهم جبلان وسنجد الراوي يصف المثنى بصيغة الجمع في أحيان كثيرة .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق ص٢٠٨ وشوقي عبدالحكيم ص٨٤ وتقوله هنا بمعنى تقول له .

(٦) خلية الاصح منها (خلية) وهي تكرار لاركه ولا تزيدين اشرار أي لا تزيد الشر .

(٧) الوطا تعني الوطية وهي الارض .

(٨) لعلها لا تمنع كما رواها شوقي عبدالحكيم .

(٩) الاصح اعمل ضعيف أي تظاهر بالضعف .

(١٠) الجازية اخت السلطان حسن .

(١١) صبيح – ص٢٠٨ .

(١٢) جنيف سفني سريع والخفاجي يفسر هنا حلمه بوضوح أكثر .

(١٣) صبيح – ص٢٠٩ .

(١٤) اليسون ليريك ص٩٢/٩٣ .

(١٥) طبع الاسم في التغريبة – الحلقة الثالثة – رواية (طبعة صبيح) والاصح هو دوابة كما يبينها الرواة الآخرون .

(١٦) في الاصل (ابو) والاصح لفظاً (أبي عامر) .

(١٧) ترويها طبعة (كركبة) والاصح لدى عبدالحكيم (كم كركبة) .

(١٨) لومنا تعني جمعنا .

(١٩) معنى ذلك أن مطاوع الخطيب قد كمن لعامر ثم تحرك على فرس ناشطة ليضربه بحربته .

(٢٠) هنا تصف دوابة حركة الامير ظريف ومحاولته قتل مطاوع .

(٢١) هنا يوضح عامر انه وحيد أبويه لكن رواية الراوي الشعبي الحاج سعد بن عبدالله بن علي من جزيرة جربة بتونس تورد قصة لولد عامر عند الصيد مع سعد العجيل (الهجين) وهو امر يخالفه د. عبدالعزيز لبيب في دراسته عن (الفصيح في لغة السيرة الهلالية) المنشور في العدد (١١)- يوليو ١٩٨٨ من مجلة (المأثورات الشعبية) وينسب الحدث الى صبرة بن ابي زيد الهلالي والدراسة ثمينة في ابراد اماكن تواجد الهلاليين والزناتية في تونس وكذلك مقالة محمد المرزوقي (منازل بني هلال) عدد حزيران

١٩٨٠ من مجلة (الحياة الثقافية) في تونس فالمرزوقة قرية تقع عند(ولاية سيدي أبو زيد) وكانت سابقاً سوقاً اسبوعياً لبدو رحل هم المهاذبة ويقول د. لبيب في هامش ٥٢ (وتجمع الروايات الشفوية على مقتل الزناتي بالمنطقة المجاورة لقرية مزونة وتعرف الى اليوم بمشهد الزناتي خليفة) رغم ان السيد الاخضر بو زيان المزوني يؤكد ان مقتله في (عين القطار) قرب قرية المكناس على بعد ٢٥كم من مزونة .

(٢٢) الأصح انت شفوق ولكن الراوي الشعبي لا يلتزم نحوياً .

(٢٣) الاصح (تسعى) .

(٢٤) صبيح - ص٢١١ .

(٢٥) سيرة العرب الحجازية - الدرة المنيفة - القاهرة - دار الطباعة اليوسفية - د.ت ص٢٠-٢١ وما بعدهما .

(٢٦) المصدر السابق ص٢٠ .

(٢٧) المصدر السابق ص٢٥ .

(٢٨) المصدر السابق ص٣٢ .

(٢٩) المصدر السابق ص٣٦ .

(٣٠) المصدر السابق ص٧٣ .

الفصل الرابع

عامر بن عامر

آل عامر الخفاجي

يختلف رواة السيرة الهلالية في أماكن وجود آل عامر الخفاجي بعد موته فبعضهم يضع ابنته دوابة (دواية) في تونس تستقبل دياباً وتطلب منه الثأر لوالدها وبعضهم يظهرها وجدها ضرغام في العراق يستقبلان (مع أمه شولا) ابنه الصغير وقد عاد مع أعمامه (الدرة المنيفة ص٩٥) •

وقبل أن ندخل في تفاصيل حركة آل عامر لا بد لنا أن نتوقف عند صورة من صور المعارك بين الزناتي خليفة ودياب بن غانم لنحدد عند روايتها علاقتها بالخفاجي عامر •

أحـلام الزناتي

استمرت الحرب بين دياب بن غـانم (راعي الشهبا) والزناتي خليفـة (أبو سعده ونكبة الاعداء) شهوراً كان الزناتي خلالها يعود من المعركة وقد تفرغ لهموم الاحلام التي تزعجه وتقض مضجعه ، ومن هذه الاحـلام ـ كما يقول راوي الدرة المنيفة الشيخ حسن الخدري ـ[1] :

« حط رأسه ونام فرأى انه في بحـر من دم يفيض ويمتليء ورأى سعده ينقطع من رؤوس الصداري فقام من منامه مصفر اللون مرتعـد الجسم وبات الزنـاتي في تلك الليلة وصبح وهو متفكر في حرب دياب »[2].

ومنها[3] :

« وبات مهموم ومغموم فرأى منام فقام منه مرعوب وهو يقول : يا حماية الله المانعة ، فقالت له ابنته : ما الذي أهمك يا والدي ؟ فقال لها رأيت منام فقالت ايش رأيت في منامك فأشار الزناتي يقول صلوا على طه الرسول » .

ثم أنشد أبياتاً في وصف حربه مع دياب ليقول بعد ذلك في وصف حاله :

رأيت منـاماً منــه راع خاطـري ... ومن هوله أضحى فؤادي في وجل
رأيتني قنـاص في واســع الخلا ... اقنص وحوش البر في وسط الجبل
جا سبع أروع من الخمـا مشمشم ... فعينـاه تقدح من نـار يشتعل
وهمـا على همــزة لينوشــني ... قتل الحصان مني كيف ما العمل

وعلى عادة الراوي الشعبي فانه يورد هنا كلام سعده في تفسير الحلم مباشرة وهو يروي قصيدة الزناتي أعلاه إذ يقول بصوت الراوي العليم :

قالت فتاة الحي سعدة الاي شكت ... والدمع من عينها تحـدر وانهمل

دا السبع اللي رأيته في واسع الخلا واضحى فؤادك من قتاله يشتعل
هذا ديـاب الخيل عيهـور العرب طعنه يجي كالنـار لمـا تشتعل
والعـلم لله غـداً وسط الضحـى يظفر عليك والمهر منـك ينتقل
ثم الصـلاة على النبـي وآلـه خير الأنام وسيد الرسـل الاول

والملاحظ أن كابوس الاحلام المتصل هذا لا يتحدد بالزنـاتي وحده بل بسعده ابنته التي تدرك مسبقاً مصير والدها وتفسر له الحلم على هـذا الأساس • والملاحظ كذلك ان الحلم يتحقق في صباح الغـد وفق تفسـير سعده لكن الزناتي يهرب وسط المعركة بحماية رجاله •

حلمـان متقابلان

ويصف الراوي الشعبي الشيخ حسن الخـدري بعد ذلك قتالاً بين الزناتي ودياب استمر ثمانية وعشرين يوماً متصلة (والمبالغة هنا صفـة من صفات الرواية) حيث عاد الزناتي بعد ذلك الى قصره (وهو مهموم مغموم وروح نايم فرأى مناماً أن قصره قد انهدم وضربه دياب بالرمح في عينـه فوقع قتيل فقام الزناتي وهو مرعوب من هول ذلك المنام ونزل طلعة النهـار وهو يرتعد من دياب) •

في ذات الوقت كان دياب بن غانم(٤) قد رأى مناماً تلك الليلـة (فقام منه وهو فرحان) ولا يتحدث الراوي عن تفاصيل حلم دياب مباشـرة بل يقول ان دياباً التقى بالزناتي وهو ضاحك (فقال الزنـاتي اسمع مني ما أقول وصالحني وكف عن الحرب واعتبر بمن مضى قبلك وأنشد يقول صلوا على طه الرسول) وقبل أن نورد بعض أبيات الزناتي التي يذكر فيهـا من قتلهم من الصناديد لا بد لنا أن نشير الى ان الهلاليين قد طلبوا مـراراً من الزناتي أن يرحلوا دون قتال لكنه كان يرفض ذلك لكن الاحـلام أزعجتـه

وأخافته وآلمته. كما ان قتال دياب بن غانم المستمر معه وانتصاراته عليه قد جعلته يفاوض طلباً للصلح خوفاً من الموت الآتي .

ومن أبيات الزناتي هنا التي تبدأ بالصلاة على سيد الرسل والتي يدعو فيها دياباً للصلح :

خمسة وتسعين قرم بيدي قتلتهم ... واسكنتهم بعد النعيم ردام
وكان الخفاجي رد للبيض كلهم ... مضى وانقضى يا نعم كان همام
فان كان على يدك حضرت منيتي ... فما أحد يدوم إلا العلي العلام

لكن دياب بن غانم يرفض الصلح ويبدأ أبياته الجوابية وسط القتال بالصلاة على نبي الهدى ويعلل سبب رفضه على الوجه الآتي :

أنا أول ما نبدي نصلي على النبي ... نبي الهدى نصبت له الاعلام
يقول أبو موسى دياب بن غانم ... ولي عزم في الهيجا كما الصمصام
فوحيات راسي والعنان وسابقي ... ومكه ومن نصبت له الاعلام
ما همني أهلي ولا اللي جرى لهم ... ولا غمني إلا ولد ضرغام
وكان الخفاجي رد البيض كلهم ... ونصرى ارملها مع الأيتام
وكان له دار للمضافات والقرى ... وعزمه على الحضار دوم دوام
ولا كان مثله قط للضيف راحب ... ولا كان مثله في هلال إمام

لقد كان الخفاجي عامر (ولد ضرغام) ومقتله غدراً أهم أسباب استمرار النزاع بين البطلين من وجهة نظر دياب الذي قدر في عامر بطولته وتضحيته كما وضح في أبياته ، كما كان الدافع لذلك صورة علاقة عامر بوطفى ولكنه يفصح أيضاً عن صورة الحلم الذي رآه فجعله فرحاً إذ ينشد(٥) :

رأيت مناماً يا زناتي خليفة ... وارعبني من دون كل مقام
رأيت قصرك العالي تهدم على ... البزى والشهبا فوق تمام
ورأيت أن سن الرمح شق عينيك ... واجوادك نصبوا عليك أعلام

ثم ينصحه :

روح ودع أولادك بكـره أطاردك　　أنا أعطيك في هذا النهـار زمام
وأفضل ما قلنا نصلي على النبـي　　نبي عـربي للأنبيـاء ختـام

ويبدو أن الزناتي خليفة قد شعر بدنو أجله نتيجة لاستمرار الحـرب دون جدوى وعدم استطاعته التغلب على دياب وكثرة الاحلام المرعبـة التي يصادفها فودع أهله وقواده بعد أن دعاهم للقتال بدله ولم يستجيبوا ثـم دعـا قارىء الرمل (فرهود)(٦) فضرب الرمل أمام الزناتي وأنشد(٧):

أرى النصـرة غالبة على يد ديبهم　　أبو موسى الزغبي ثقيل الحمايل

وهنـا

تبدى أبو سعده الزناتي وقال له　　لم الحصى قلبي انكوى بالشعايل

فقد بدا مستسلماً لقدره وبان فوز (ديبهم) دياب الزغبي حاصل لا بد منه. وتأتي تفاصيل المعركة الأخيرة بين دياب الـزغبي الهلالي والزناتي خليفـة الحميري التي تنتهي بمقتل الزناتي برمح دياب ثم بايراده وصاياه كما هي عادة الراوية الشعبي عند مقتل كل بطل من أبطال هذه السيرة ، حيث يصور مقتل البطل ثم يعيده الى الحياة لانشاد مسرى حياته وفلسفته ووصـاياه لأهله . والأهم من ذلك كله ان السلطان حسن رأس التحـالف الـزغبي الهلالي يأتي (بعد حصار أسوار قصر الزناتي من قبل الهلاليين) الى مكان الملك القتيل ويضمه الى صدره ويقول له (ما كنت تستأهل هذه الفعـال ولكن مكتوب عليك من القدم في الاول) وهنا يتجلى الايمـان بالقضـاء والقدر وبالمعتقد الجبري وهنا أيضاً يبعث الزنـاتي مرة أخرى من موتـه ويسأل عمن احتضنه فيخبر باسمه فينشد له متمنياً أن يكون قد قتـل على يد أبي زيد .

ينقلنا الراوية الشعبي بعد ذلك الى وصف هلع سعده وخوفها ورثائها (شعراً) لوالدها ومفاتحة ديـاب لها بالزواج لتعيش مكرمة ثم استنجادها

بالسلطان حسن الذي يساعدها على نقل والدها ودفنه حيث أرتدى الزناته السواد عليه فيما فرح الهلاليون ودقوا الطبول ونقروا الدفوف.[٨] •

ــ الثــار ــ

هنا يقبل الأميــر نصر (واسمه ناصــر في التغريبة ــ ط صبيح)[٩] شقيق الزناتي من أرض فاس ومكناس ويجلس على تخت (عرش) الزنــاتي (في ط صبيح يجلس العلام على العرش ممثلاً للزغابة) ومعه سعده تدعو للثــأر ، وتدور المعارك بين نصر الجايلي وسرور ابن القاضي بــدير بن مزيــد ثم مع السلطان حسن وأبي زيد ودياب وأبي زيد على التوالي،وقد استطاع أبو زيد قتل نصر وأحاط مع أنصاره بأسوار تونس فلم ينزل أحد من عرب زناته الذين اجتمعوا عند العلام الذي نصحهم بالصلح فأجــابوه وأرسل رسالة بهذا المعنى للسلطان حسن •

ــ الصلح ــ

عندما وصل المراسل (النجاب) الى خيمة حسن قرأ الرســالة وشــاور أهله الذين وافقوه على الجــواب الذي كان بالموافقه على الصلــح حيث اعترفت به زنــاته سلطاناً للعرب ثم سار العلام بقومه الى السلطان حسن حيث اجتمع القوم سوية وقسموا البلاد فيما بينهم •

العراقيون ودبــاب

عرفنا عند تصويرنا لحياة الخفاجي عامر ان دياب بن غانــم قــد زوج ابنته وطفى (وطفه) لعامر وتأتي هذه الرواية عند اليسون ليريك على لسان الراوي الحجازي وفي طبعة صبيح والرواية التونسية ، لكن راوي (الدرة المنيفة) يأخذنا هنا الى قضية أخرى مفادها ان أهل العراق من رجال عامر

الخفاجي قرروا السفر من تونس ولكن بعد المطالبة بابن عامر (واسمه عامر أيضاً) الذي كان مع جده دياب بن غانم • وقبل أن نحلل التفاصيل نفضل أن يعلو صوت الراوي الشعبي الشيخ الخدري وهو يسرد الأحداث شعراً ونثراً حيث يقول(١٠) :

« ويرجع النص والكلام الى زيد بن عم الخفاجي عامر فانه جمع مال الخفاجي عامر ورجاله وعياله ونواله وعــزم على الرحيل وقالوا له تعطينا ابن الخفاجي عامر فأبى الأمير منهم وقال لهم خير فاجتمعوا على يد القاضي فأنشد الأمير زايد يدعى على دياب بهذه الأبيــات يقول صلوا على طــه الرســول :

الحكم في قضية ابن عامــر

انا أول ما نبدي نصلي على النبي — نبي عــربي بين طريق المذاهــب
يقول الفتــى زايــد بعين وجيعة — ونيران قلبه زايــدات اللهائب
اسمع كلامي اليوم يا قاضي العرب — واحكم بشرع الله يا ابن الأطايب
زرعنــا في هــلال بن عــامر — وجا زرعها يا أمير ناجب وحاصب
وادى دعوتي اليوم يا قاضي العرب — فاحكم بشرع الله بين الصلايب
تبدى القاضي في الجواب وقال له — ونيــران قلبه زايدات اللهايب
لا يقبل البرطيل حين يقع القضا — ولو قطعوا ايدي بماضي القضايب
انا لآجي مع السلطان لأجل ولايته — ولا آجي مع الصعلوك ماذا واجب
إن كنت انا قاضي وعندي حكومة — دياب بن غانم يا أمير فيك عايب
وافضل ما قلنــا نصلي على النبي — نبي عــربي شدوا إليه الركايب

(قال الراوي) فلما فرغ زايد من كلامه والقاضي رد عليه نظامه فقال دياب يا قاضي العرب غيبتي بأي سبب فقال لهم اعطيهم ابنهم دول لهم العصب وانت لك الأنثى فأخذوا

الولد منه وكان عمره أربعة عشر يوماً وعمدوا الى بلادهم وساروا يجدون السير الى أن أقبلوا على بلاد ماضي بخفاجة فدق طبل الحرب وقال يا لأخذ الثأر وجلي العار لي عندكم ثـار على مدة الخفاجي عامر ورمحوا على خفاجة وأخذوا منهم المال والعيال وإذا بالأميرة دوابة بنت الخفاجة عـامر أشارت تقول :

أنا أول ما نبدي نصلي على النبي نبي عربي بين طريق المذاهـب
قالت دوابـة عندما شطها النيـا وقاسيت من الدنيا ليالي صعايب
ألا يا خفاجة الطموا الخيل بالقنـا وحوشوا جميع المال منهم غصايب
تفوتوا لهم يا قـوم خفاجة لمالكم دا عيب عليكم يا طـول العدايب
لما سمع محمود وزايد كلامهما ركبوا على خيل من كرام النجايب
وركب الفتى عامر وركبت خفاجة وحلوا صدور الخيل من كل جانب
على الميمنة محمود وزايد ميسرة وفي الوسط عامر بماضي القضايب
ينـادي أنا ابن الخفاجي عـامر يجندل بواديهم على أعلى الترايب
وقال له من أمس أبوك فاني جيادنا واليوم لأخذ الثأر أنا جيت طالب
وضربه بالمرزاق أرماه على الثرى دمه جرى فوق الأراضي صبايب
لما وقع على الارض ولت عساكره وراحوا يزقوهم خفاجة الصلايب
واخذوا مكاسبهم وخاض خيولهم وردوا جميع المال لعند الطلايب
وافضل ما قلنا نصلي على النبـي نبي عربي بين طريق المـذاهب

آل عامر في مصر

(قال الراوي) فلما ارتجع بالنصرة عامـر ومحمود وزايد بعد قتل الامير ماضي بن مقرب فدقوا طبول الشيل وحملوا على ظهور الجمال وعمدوا الى بلادهـم وما زالوا سائرين حتى دخلوا مصر وهرجوا خفاجة في بعضهم البعض

وقال جماعة منهم من يسلطن على بلاد العراق فقال بعضهم حماد وقال بعضهم ضرغام وهرجوا في بعضهم وتهاوشوا ووقع بينهم العراك وتجاولوا مع بعضهم البعض وكان الأمير حماد حلف بالدين والقسم إنه ما يروح الشرق ولا يروح العراق وقعدوا معه فرقة الذين من غرض حماد ومن كان يغرض له على وردان وعاد زايد وأولاد عمه وبقية القوم عربان خفاجة وساروا وعمدوا الى العراق وما زالوا سائرين حتى دخلوا البلاد وديوا أهلها برجوع خفاجة وتلقوهم وسلموا عليهم وأتت الأميرة شولا باكية ولقت أولادالخفاجة وهي تبكي وتنوح من كبد مجروح وبنات العراق وجوها لابسين السواد ولقوا دوابه وأمها وأولاد الخفاجة ومن ضرغام وكان ابن خفاجة طفلاً صغيراً فاطلعت دوابه للديار والاوطان ودقت صدرها ولطمت خدودها ووقفوا بنات العراق ونصبوا الميعاد فأنشدت الأميرة دوابة تقول صلوا على طه الرسول :

أنا أول كلامي في مدح المصطفى ... يا من حضر صلي عليه تسعدي
قالت دوابة بنت سلطان العراق ... الدمع يجري على الخدود تبددي
واقطعوا من رؤس الدلا لشعوركم ... واحرموا العين كحل المطردي
وشقوا جميع الملابس كلها ... والبسوا بعد البياض الأسودي
جداه تعالي وانظري ما أصابها ... وابكي الدموع وعددي
ونوحي على طول الليالي والمدا ... واحرمين العين نوم المرقدي
يا طول نوحي في الديار لوالدي ... يا طول أشواقي وكبر تنهدي
قلب علينا الدهر ثم أهاننا ... معبس وانى لنا متنكدي
ثم الصلاة على النبي وآله ... والزين من صلى عليه يرشد

رثـــاء أم عامر

(قال الراوي) فلما فرغت دوابه من كلامهـا صاحت الصبايا بالبكاء والنواح وحزنوا من كلام دواية وأقامـوا المآتم في الديار وطلعت دواية الى القصر فوجدت شـولا واقعة على القصر بتاع الخفـاجة وهي تبكي وتقول صلوا على طه الرسول :

أنـا أول قولنـا نمدح محمـد   رسول الله كم لـه معجـزاتي
تقول شـولا ودمـع العين يجري   على الغياب نـازل هامـلاتي
ونوحـات الغربان على المنـازل   مضيف في منـازلنا وشـاتي
على عـامر أنوح بطول عمري   ويا زمـاني عليه الى الوفـاتي
وذقنـا الحزن بعد فـراق عـامر   وعـدنا بعده قـوم شـناتي
مقـالات شـولا يـا دوايـة   وأنا وانتي حزانـا ناعياتي
ولو هجعت جميع النـاس جمعـاً   بطول الليل عينـي ناعيـاتي
ومن بعد الكلام نمـدح محمد   رسـول الله كم له معجـزاتي

(قال الراوي) فلما قالت شولا هذه الأبيات تقدمت الى باب القصر الثاني ووقفت مثل العادة مثل ما كانت تقـف وعيطت على ولدها عامر فزاد بهـا الوجد وبكت بكـاءً شديداً ما عليه من مزيـد وأشارت تقول صلوا على طـه الرســول :

أنـا أول قولنـا نمدح محمـد   رسـول الله يا خـير البرايـا
ألا قالـت فتاة الحي شـولا   ودمع العـين يجري كالمنـايا
بكيت على ديـار لأبـو دوايـة   وقلت لهـا كـلام معنويـا
أتيتنـي بحـالات وحيشـة   فقالت لي صبح ربعـي خليـا
تغيرت البـلاد لله جل عامـر   وقد فات الزمـان الأوليـا

سكن عامر في الالحاد دارا وخلا الدار والربع خليا
وأكل الدود منه في بلاده فبات غريبا مدلولا رديا
وأجساما له في الأرض دابت وجسمي انصنى واصبح خليا
وغابت شمسهم وأظلهم حماهم واظلمت الديار الى معيا
فنوحوا كلكم بالوجد وابكوا علي واكثروا حزنا وعيا
وقد حزنت عليا كل أرض وعادوا نيحات لهم عويا
وأفضل ما قلنا نصلي على النبي رسول الله خير البريا

(قال الراوي) فلما فرغت شولا من كلامها طال البكا عليها والنواح والعديد والصياح وطال عليهم الايام والليالي فتركت شولا ولدها الخفاجي في جنح الليل فبكت وعادت تنشد وتقول صلوا على طه الرسول

أنا اول ما نبدي نصلي على النبي نبي عربي جانا بكل الربايح
تقول فتاة الحي شولا وما شكت إذا افتكرت دمت عليها الجرايح
بكايا وتعديدي على فقد عامر كبير البواطي في ستين الشجايح
وفرع التقى في معدن الجود والعطا أمير يحمي قباب الملايح
وأفضل ما قلنا نصلي على النبي نبي عربي جانا بكل الربايح

عامر الابن

عامر الحفيد

(قال الراوي) فلما فرغت الاميرة شولا من كلامها أقامت تبكي وتنعي هذا ما جرى هنا وأما ما كان من أمر الأمير ضرغام فلما فرغوا يعزوه العرب والامارة وأكابر دولته في ولده عامر وطلع عامر لجده وقال له يا جدي مرادي

أشق على بــلاد والدي لأجل ما يعرفوني القبــائل وأتعرف بهم فقال له وجب فركب الجميع والامير زايد والأمير مسلم الوزير وطلعوا شقوا في البلاد وكلما ميلو على مدينة تطلع أهلها يتعرفوا به ويقدمون له حمــول وهدايات وخيــول وأموال شيء كثير قوي لا يحصى عــدته واله قد دار على جميع البلاد وتوجه الى بلد السكمطة فهذا ما كان من أمره وأما كان من أمر العجب بعد قتله خرندشاه وسلطنة المنذر وقتله من يد النعمان حكم وعدل وولى وعزل فتداولــت الأيــام وسمع بخبر عامر والخفاجة وأخذ منهم محــلات وبلاد وطين وكروم وبساتين وكل شيء كثير وقال للعجــم بلغني انه نشأ للخفاجة عــامر غــلام وأتى من بــلاد الغــرب وأخاف أن يعلموه عساكره ودولته بما جرى فيقوم علينــا هيا للحرب لأخذهم طهمة قبل تجهيزهم ويركبوا علينا وركب وسار الى أن وصل لأرض القبيسة تحت الليل وبقيت وقعة مهولة تحت كسرميتين امير وكسرت على قوم خفاجةفرجعت الرجال منهزمين الى الديار فنهبوا العجم المال وردوا الــى الخيام فقال النعمان لا أرتحل حتى تقتل عامر بن الخفــاجي فهذا ما كان من أمر النعمان وأما ما كان من أمــر الامير ضرغام كثرت علته وفاضت دمعته وإذا بالأمير عامر مقبــل من أرض معران فتفكر الأمير ضرغام حين رأى ابن ولده عــامر وركب بين الرجال وأشار ينشد ويقول صلــوا على طه الرسول :

أول قولنــا أمــدح محمــد ... نبي عربي جانا بكل الفضــايل
يقول الفتى ضرغام والنار في الحشا ... ولا أشكر من الأيام إلا القلايل
وكنــا بنعمة ســالمين مع النيا ... وكان اجتماع الشمل بين القبايل

وكان عندي سبع امارة فوارس   من أولاد كبدي العزاز الأصايل
أتانا على بغتة اللعين بخيله   صفة جازية ترخى جميع الدلايل
وكان عندي سبع امارة فوارس   أيا حسرتي ماتوا الملوك الأصايل
فلما رزقني الله ربي بعامر   فجلنا يكيد الخيل بماضي النصايل
فمنع الى الاعجام وأحمي بلادنا   وقد كانا يقري الضيف عندي الحمايل
قعدوا ضيوفه سبعمائة ليلة   وكساهموا خاص الحرير للخبايل
فأردوه زناته عندما راح بلادهم   وخلوا عياله قاصين الجدايل
فكادونا الأعاجم من بعد عامر   ورحنا معاهم كاولايا ذلايل
أيا عامر يا أمير يا ما حولنا   أتانا الفتى النعمان وجميع النبايل
فانزل أيا عامر في الحرب لاطمة   وإياك تخلصهم وتحمي القبايل
تبدا عامر في الجواب وقال له   ايا جد لا تطوي كلام الدحايل
غداً الضحى انزل أوريك همتي   وخليه مزقولا على الأرض مايل
واقتلي فوارسهم واسبي حريمهم   ولا نخلي عريض البند يغدي قلايل
ولا نخلي خيال من فوق سابقه   ولا نخلي نساهم هالبين الدلايل
وأفضل ما قلنا نصلي على النبي   عليه كل من صلى ينال الفضايل

(قال الراوي) فلما فرغ ضرغام وعامر من كلامهم باتوا الى الصباح ونزلوا الى الميدان ونادى عامر أين النعمان وإذا بالنعمان دافع جواده وبدأ يقول صلوا على الرسول

أول قولنا نمدح محمد   رسول الله ظللته الغمامي
ألا ما قال نعمان المسمى   أنا لي عزم في يوم الصدامي
أنا لي عزم في الهيجا قوي   إذا ثار العجاج واضحى الظلامي
أجود بساعدي واضرب بسيفي   واخلي الدم من البيد سجامي
ولي همة على جميع الفوارس   إذا عقد العجاج على الكرامي
أيا عامر فبادر والتقيني   أنا الميهور في يوم الصدامي

تبدى لــه الفتى عــامر وقال له أيا نعمان كون اســمع كلامي
فإن طــاوعتني وسمعت منــي على اعلا الأرض انزل في أمامي
وبعد الكــلام امــدح محمــد رســول الله البــدر التهــامي

(قال الراوي) بينما فرغــوا من كلامهــم حملوا على بعضهم البعض وركضت من تحت حوافر خيلهــم الأرض وما زالوا من أول النهار الى وقت الظهر أقام يده النعمــان وضرب الأمير عامر مال عنها راحت خايبة فقام يده عــامر وضرب النعمان في صدره طلع يلمع ظهره ارماه قتيــل وفي دماه جزيل ورمح ابن الخفاجي عامر على الأعجــام فولت الأعاجم هاربين والى النجاة طالبين وفقد منهم رجالاً لايعلم عددهم إلا الله وخلصوا الأســارى وملكو بلاد الاعاجــم ورجعوا الى بلاد الاوطان وجلس عامــر الخفاجي ملكــاً وسلطاناً فهذا ما كان من أمره .

ــ التحليل ــ

ويبدو من هذا النص الطويل نسبياً ان آل عامر الخفاجي الذين كانوا معه في تونس بقيادة زايد (زيد) ابن عمه عزموا على الرحيل الى العــراق بعد انتهاء حرب دياب ــ الزناتي والحــروب الصغيرة الأخرى التي تلتهــا وانهم طالبوا بولد عامر الخفاجي من وطفى بنت دياب ، ويبدو ان دياباً كان يريد أن يبقي حفيده لديه لكن القاضي يحكم للعراقيين بابنهم فيســلمه جده دياب لأعمامه وكان عمره أربعة عسر يوماً !! لكن الرواية تأخذ منحى آخر إذ يطلب العراقيون وهم يرحلون الثأر من الامير ماضي بن مقرب وهو ــ كما توضح شجرة أنساب السيرة الهلالية (١١) ــ ماضي بن مقرب بن مناف بن منيف بن النعمان بن جبير (شقيق جابر) بن المنذر بن هــلال

بن عـامر بن الأوس ، وهو بذلك ابن عم دياب بن غانم والسـلطان حسن وأبو زيد وغيرهم من رؤوس الهلاليين ا•

ويورد راوي (تغريبة بني هلال) خبراً يقول ان الأمير ناصـر شقيق الزناتي قد جاء ومعه الجابلي بن مقرب[١٢] (وليس ماضي بن مقرب) وأمراء زناتة الآخرين ليأخذوا بثأر الزناتي فالتقى جيش زناته بشباب من بني هلال وحاصروهم ومنهم الأمير صبرة بن أبي زيد وموسى بن ديـاب وغيرهما فقتلوهم الأمر الذي دفع أبا زيد الى قتل الجابلي (الجابلي) •

ويورد راوي التغريبة[١٣] ان الماضي بن مقـرب كان حاكماً لصعيـد مصر وانه صديق الهلاليين وقد استضافهم مثلما فعل الخفاجي في العراق ، ولكنه طلب منهم أن يهدوه إما فرس دياب (الخضرا) أو الجازية أم محمـد أخت السلطان حسن وزوج الشريف شكر ، وبعد اجتماعات مطولـة بينهم وافقوا على ارسال الخضرا له وعندما وصلت الفرس اليه وصلته رسالة من زوج الجازية بتنازله عن زوجته له فأرسل الماضي بن مقرب الخضـرا الى الهلاليين مطالباً بالجازية — لأن زوجها تنازل عنها — فاضطر السلطان حسن لارسال شقيقته الى حـاكم الصعيد رغـم معارضتها وحزنها على طـلاق زوجهـا لها •

إن راوي التغريبة لا يتوقف طويلاً عند هذه القصة الغريبة بل نـراه يضع الجازية بين أهلها من جديد في الحلقة السابقة ولذا فنحـن نجد ان الروايات تختلط وتتداخل وان الماضي بن مقـرب الذي ظهر هلاليـاً مرة وحاكماً لصعيد مصر مرة أخرى وخفاجياً مرة ثالثة لم يكن بينـه وبين آل الخفاجي عامر أية مشكلة ، وان الثـأر الذي أراده زيد (زايد) ومحمـود الخفاجيين لم يكن من الماضي بن مقرب بل من واحـد من أمـراء بيـت الزناتي خليفة كان قد نهب أموالهم ، ولعله الجابلي بن مقرب الذي وفد الى تونس مـن المغرب (فاس ومكناس) مع ناصـر شقيق الزناتي للثـأر من

الهلاليين ، ويبدو ان هذا الرأي أقرب الى الدقة والصواب والانسجام مع السياق (التأريخي) الاسطوري للأحداث وان ايراد راوي (الدرة المنيفـة) لاسم الماضي بن مقرب كان مجرد شطحة من شطحات رواة سـيرة عامـر الخفاجي واضافاتهم •

ـ خلافات آل عامر ـ

يقول الراوي ان الخفـاجيين بعد وصولهم مصـر قد (هرجـوا مع بعضهم) أي اختلفوا حول من يصبح سلطاناً على العراق ، فبعضهم نـادى بحماد وبعضهم نادى بضرغام (أو درغام وهو والد عامر) فقرر الأمير حماد الا يعود الى العراق وظل وجماعته هناك ، وعاد زايد وأولاد عمـه ومعهم طفل عامر (الخفاجة) الذي يصوره راوي (الدرة المنيفة) وقد كبر خـلال العودة وحارب مع أعمامه ضد الاعداء •

عند عودة الخفاجيين من مصر (أو من عاد منهم مع عامر بن عـامر) استقبلتهم شولا (أم عامر بن ضرغام) وابنته دوابة بالبكاء والانشـاد فيما أصبح ضرغام (والد عامر) حاكماً على البلاد •

وتدور الأيام ويصبح عامر بن عامر الخفاجي مقتدراً على حكم العراق ويغدو جده ضرغام مريضاً ولكنه مدرك لأخطار وتوجهات النعمان حليف العجـم الذي عزم على قتال عامر بن عامر قبل أن يستفحل أمـره • والرواية بهذا تطوي السنوات لتصل بنا الى هذه الواقعة •

ـ الحرب ضد العجم ـ

وتدور الحرب بين الاعاجم والنعمان من جهة وبين أهل العراق بقيادة عامر بن عامر الخفاجي الذي قتل النعمان وطرد جيشه مع جيش العجم حيث

تنتهي الرواية به ملكاً وسلطاناً على أهله في العراق دون ان يرد ذكره كرّة أخرى في هذه السيرة إلا في أبيات هنا وهناك لأبي زيد والسلطان حسن وجده لأمه دياب بن غانم الذين انتهت بهم الوقائع الى الخلاف والحرب فيما بينهم كما تصف ذلك أحداث السيرة الكبرى •

ـ انتشار آل عامر ـ

والذي يبدو لي وأنا أودع قراء هذه السياحة في حياة ملك عراقي اسطوري وأهله ان آل الخفاجي عامر قد انتشروا في الوطن العربي ولكن بشكل معاكس لانتشار الهلاليين • فهم قد وصلوا معهم الى تونس ، ولابد ان بعضهم قد بقي هناك مع بني هلال ، ولا شك ان بعضهم قد عاش في مصر مع جماعة الأمير حماد الذي انتشر أحفاده في صعيد مصر وما جاوره ،وذلك يفصح ـ ربما ـ عن سر هذا الاهتمام المستمر والمتنقل من جيل الى جيل بسيرة الخفاجة أو عامر من قبل رواة السيرة الكبرى في مصر •

إنّ الذي يهمني هنا ـ ويهم القارىء الكريم دون شك ـ اني استطعت إعادة كشف حياة أمير (ملك أو سلطان) عراقي أسطوري ، وكم للأساطير من وجه حقيقي •• وربط الروايات المتفرقة عنه ببعضها للوصول الى التفاصيل ، وتتبع آثار أهله وأعمامه وهم يتحركون بين العراق ومصر وتونس وبالعكس ويحاربون الظلم أينما كان مستكملين رسالة قائدهم البطولية الجميلة •

الهوامش

(١) وزد اسمه في ص٥٥ من (الدرة المنيفة)
(٢) المصدر السابق ص٦٢
(٣) المصدر السابق ص٦٣
(٤) المصدر السابق ص٧٣
(٥) المصدر السابق ص٧٤
(٦) المصدر السابق ص٧٥
(٧) المصدر السابق ص٧٦
(٨) المصدر السابق ص٩٠
(٩) التغريبة ط صبيح ـ ص٢٥٣ وما بعدها
(١٠) الدرة المنيفة ص ٩٥ـ١٠٠
(١١) باسم عبدالحميد حمودي ـ الزير سالم ـ الموسوعة الصغيرة ـ بغداد ـ ١٩٨٩ مطابع دار الشؤون الثقافية ص٢٦
(١٢) التغريبة ص٢٥٦
(١٣) التغريبة ـ الحلقة السادسة ص١٧٧

الفصل الخامس

مقتل الخفاجي في الروايات الشفاهية والمدونة

بين النص ونيابـة الـراوي عنه

تبدو عملية دراسة السرديات الكلاسيكية العربية من مقامة الى خـبر الى خرافة الى سيرة شعبية الى أساطير عملية ضرورية لفهم ذلك التواصـل التأريخي المتطور بين بنية اداء قديمة الى البنى الفنية الحديثة التي تطورت فيها أنماط القص والرواية . وإذا كان القص (الرواية) هو تشكيل المتـن الحكائي واظهاره بصـورته (النهائية !؟) أمام السامع ـ القـارىء فان السرديات العربية الكلاسيكية قد اعتمدت الرواية الشفاهية بالدرجة الاولى ثم تبع ذلك التدوين .

وإن النماذج (المدونة) التي أقدمها لكم من السيرة الهلالية تعتمد على جزء من متون البراعة الاولى ، متون سـردية محكية ، مروية قمت بنقـل نموذج منها من مسجلة الصوت لراو ما زال يؤديها حتى اليـوم ، واخترت لماذج سردية أخرى مدونة عن المؤدين لعبت بها أصوات الرواة وأقـلام الوراقين ولكنها محصورة ضمن موتيف واحد هو مقتل الملك عامر الخفاجي وقبل أن ندخل في تفاصيل المتون نود الاشارة الى ما يأتي :

تتناسل من جسد السيرة الشعبية العربيـة مرويات أخرى يسـردها الراوي لتعينه في التغريب والجذب والشد ، ومثلما يعلن شتراوس في كتيبه

« الاسطورة والمعنى » في الفصل المعنون بـ (ذوو الشفاه الأرنبية) ان الاسطورة تنشق (حيث يعتبر الاسطورة قصة) وهو يتحدث في الفصل الثاني عن التفكير البدائي والعقل المتحضر ، فان متن السيرة الشعبية يتشقق أيضاً بين أركان متعددة من البلدان العربية وبين الرواة أيضاً ويكوّن لكل متن سيري جسده الخاص •

صحيح ان شتراوس يتحدث هنا عن انتقال اسطورة من امريكا الجنوبية الى امريكا الشمالية حول الشمس والقمر لكنه يعمم التجربة ويرى ان الاسطورة كموتيفات وجسم عام تنبني في كل أرض بالشكل الذي يروق للسارد وفق مستوى تفكيره وخبراته ، وهو أمر انبنت عليه تجارب السرد المختلفة لكتاب ألف ليلة وليلة الذي يمكن مراجعة مقدمة كتاب د. محسن مهدي حوله لاثبات مجموعة الروايات المختلفة والمنشقة عن المتن الاصلي والمساوفة له والمضيفة اليه •

إننا نضع هذه (الحقائق) لاثبات ان الراوي في السيرة الهلالية الكبرى وهي : خطاب روائي متكامل لم يكن واحداً أيضاً ، وان العديد من الرواة قد تدخلوا في أماكن عديدة لاعطاء السيرة بعامة (وشخوصها)صفات واعمالاً وتوجهات تتعلق بمنطلقات الرواة أنفسهم / وقبل أن نشرع بذلك آخذين شخصية الخفاجي عامر العراقي نموذجاً للتغيير عند الرواة ينبغي أن نوضح الأسس العامة التي انبنت عليها هذه السيرة •

جسد السيرة

لا أستطيع بدايةً أن أبت تأريخياً بعلاقة السيرة الهلالية بجهد مماليك مصر في القرون الوسطى للحفاظ على طريق الذهب ولكني أورد اشارة إحسان سركيس في كتابه (الثنائية في ألف ليلة وليلة) ص٢٣ حيث يقول :

« إن النزاعات المبهمة التي كانت تتم بين القاهرة والدول التي تقوم في المغرب ـ مثال ذلك الحملة التي أرسلها الفاطميّون والتي تكفلت بها

قبائل بنو هلال وسليم ــ تفسر بأغلبيتها لا برغبة احتلال الأرض حسب بل برغبة مراقبة طريــق الذهب ما أمكن ذلك » . وهو يحـــدد طريق الذهب بالقول في ذات الصفحة استناداً الى الادريسي والبكري انه طريق تجــاري يتعلق بـ « الذهب القادم من السودان أي من وادي نهر النيجر ، هذا الطريق الذي ظلت بلدان المغرب تراقبه طوال ستة قرون ، وكان هذا الطريق يمــر من خلال الصحراء الشرقية حتى منتصف القرن الحادي عشر ، ثم أهمــل بسبب العواصف الرملية وبسبب الاعتداءات المستمرة التي كانت القوافــل ضحيتها » . والواقع ان هذا الطريق لا يتخذ المسار الجغرافي الذي عاشته السيرة الهلالية ووصفه الرواة عبرها ، ذلك ان هذا الطريق يمتد من جنوب مصر ولا يتصل بالمغرب أيضاً إلا من جهة الجنوب وعبر الصحراء الافريقية في وقت انتقلت فيه قبائل بني هــلال من نجد الى العــراق الى ســوريا وفلسطين الى مصر مارة ــ حسب روايات الرواة المختلفة ــ ببلدان آخرى مثل ايران وتركيا وقبرص ولكن اشارة سركيس تكشف عن دوافع سياسية لنا أن نتوقف عندها قليلاً لا لبحثها الآن بل للتعايش معها بوصفها وثيقة.

إن هذا الافتراض حــول دوافع غزو بني هــلال لبلاد المغرب يقــابله افتراض آخر يورده شوقي عبدالحكيم في كتابه (الزير سالم) يتعلق بموطن أحداث القسم الأول من السيرة الكبرى وهي أحداث قصة المهلهل ــ الزير ســالم ، حيث يطرح الباحث سؤالاً محدداً (ص١٦) :

« هل نحن بإزاء سيرة واحدة أم سيرتين ، إحداهما للمهلهل نرجح انها الفصحى تجري أحداثها بين عرب الشمال الجاهليين والثانية فولكلوريــة للبطل البرسبعي ــ الفلســطيني المنتقم لمصرع أخيه الملــك كليب تجري أحداثها ما بين الشام ولبنان وفلسطين ؟ » بل انه يذهب أبعد من ذلــك في تطبيقاته المتحفظة ليقول (ص١٧) :

« لعلنا بإزاء ملحمة فلسطينية موغلة في القدم بطلها الزير ســالم ، أو سلم الذي يشير اسمه الى تسمية القدس أو اورشليم ــ سالم ــ أو مدينــة

سالم كما انه نبت وتربى في وادي بير سبع أو بئر سبع قبل وجودها التأريخي ـ الفلسطيني واتخذها موطناً ومنفى » وهو يطبق قراءته هذه للجزء الاول من السيرة على هذا الاساس .

إن عبدالحكيم في دراسته التالية عن (سيرة بني هلال)[1] لا يربط بين هذه السيرة وسيرة الزير سالم ، وهو أمر غريب فعلاً ، ولكنه لا يقف وحده في هذا الاغفال بل يتوافق معه باحثون آخرون مثل عبدالعزيز لبيب[2] و د. أحمد الشحاذ[3] فيما بنت اليسون ليريك دراستها على ذلك وبنيت عليها دراستي عن (الزير سالم)[4] والتي يهمني منها أن أختار المقطع الآتي لاغناء هذا البحث :

« إذا كان مهما أن نثبت هنا ان النص الأصلي للسيرة الهلالية بكافة أجزائها ما زال نصاً مخطوطاً في المكتبة المركزية ببرلين فان الروايات المطبوعة المنسوبة له تعتمد على الأصل المروي شفاهاً باضافات متعددة وضعها المنشدون والرواة في سائر أرجاء الوطن العربي » .

ان مصطلح السيرة هنا يحدد الصورة الدرامية الكاملة للحلقات الثلاث التي تبدأ بقصة الزير أبو ليلى المهلهل وتنطلق الى جزء « السيرة » ثم تنتهي بالحلقة الثالثة أو الجزء الثالث الخاص بالتغريبة وتعنى الحلقة الاولى تأريخياً بدء تواجد العرب التأريخي حتى مجيء وفد هلال بن عامر لزيارة النبي محمد (ص) لتنطلق الحلقة الثانية في تصوير ما تلا ذلك من غزوات للهلاليين واختراق لتحالفاتهم حتى انتصارهم على الافرنج .

أما الحلقة الثالثة فتعنى بتصوير حركة الهلاليين في شمال افريقيا وفي تونس بالذات ووقوفهم ضد حاكمها الزناتي خليفة حتى انتصارهم عليه واختلافهم ـ فيما بعد ـ مع بعضهم البعض .

شجرة أنساب السيرة الهلالية

إن هـذا التلخيص لا يمكنه أن يفي بالغرض ومن هنـا وجدت ان المناسب أن أوضح التفاصيل عن طريق رسم صورة لشجرة أنساب السيرة الهلالية معتمداً على الطبعات والروايات المختلفة .

إن باحثين متعددين يعتمدون على الطبعة الحجرية الاولى التي وردت بلا تاريخ فيما يعتمد آخرون على طبعـة صبيح لتحقيق الصورة الشـعرية والاجتماعية والميثولوجية للسيرة ومن هؤلاء د. الشحاذ و د. عبدالرحمن أيوب وشوقي عبدالحكيـم وخورشيد و د. فائـق مخلص فيما اعتمـدت د. اليسون ليريك على الرواية الشفهية المتعددة . إن هذه الشجرة التي تبدأ بأب العرب «قيس» لتوزع تفاصيل الفروع بعد ذلك تعطي صورة واضحة للتسلسل التأريخي للأحداث رغم مغالطات الرواة حيث نجد ما يأتي :

أ ـ ان الحلقة الأولـى من سيرة بني هلال العامـة تنتهي بالتسلسل الخامس من الأنساب رأسياً وعلى الشكل الآتي :

شجرة انساب السيرة الهلالية

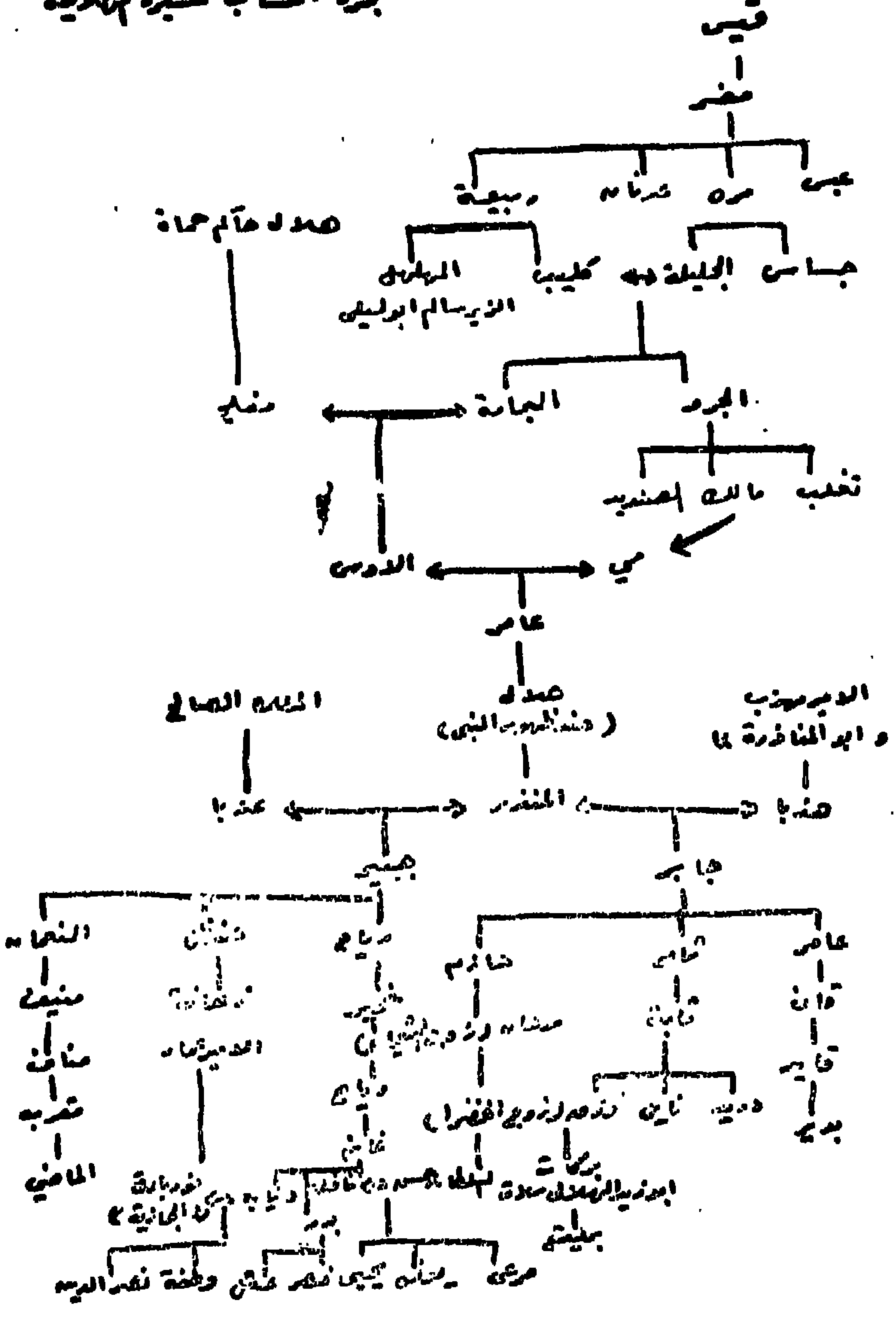

١. الصنديد	مفلح				
٢. محي	الاوس				
٣. عامر	عامر				
٤. هلال	هلال (عنظور النبي)	الملك الصالح	الامير المهذب		
٥.	المنذر	خزنبا	صنديا		
٦.	جابر بن جبير	جبير	جابر	جابر	
٧.			حازم سهام السلطان حسن	ثامر ثابت رزمه	

١. قيس	قيس	قيس	قيس	قيس	قيس
٢. مرة	مرة	ربيعة	ربيعة	ربيعة	مرة
٣. جساس	الجليلة	كليب	المهلهل	الضباع	همام
٤.	الجرو	الجرو	ليلى ([illegible])	شيبان	شيبان
٥.	الهندي	الهندي			

ب) نلاحظ أن السلطان حسن هو واحد من أبطال الحلقة الثالثة المسماة بالتغريبة مع أبناء عمومته بركات بن رزق المشهور بأبي زيد ودياب بن غانم وغيرهم •

جـ ـ تأخذ الظهور الأخرى اعتباراً من رزق والسلطان حسن بن سرحان والأمير عمار وغيرهم تفاصيل الحلقة الثالثة المسماة بالتغريبة والتي نلحظ فيهما ما يأتي :

١ـ في كتاب التغريبة يصعد حدث الزناتي خليفة عند الصفحات المائة الأولى ثم يستمر وفي السيرة ـ وهي القسم الثاني هنا من السيرة بعامة ـ تبدأ تفاصيل الأصول (الازواج والانساب والفروع) •

٢ـ يورد الراوي مو[ضوع] الزناتي خليفة كمقدمة داخلية ثم يتركه الى حين ... (الاسماء) • مفصلاً في قصص جابر وجبير وشدا ...

٣ـ يكرر الرواة قصة جابر وجبير فتجدهما في التغريبة ابنان للمنذر بن هلال بن عامر بن مفلح زوج اليمامة أخت ، الجرو وابنة كليب وتجدهما بعد ذلك ولدين لأخت الملك الزحلان الذي لجـ[ـأ]ت اليه الخضرا بنت الشريف قرضاب وزوجة رزق (أبو بركات الملقب ، أبي زيد الهلالي سلامة) ورزق هذا ابن ثابت بن ثامر (أخ جبير الأول ،) ابن المنذر بن هلال بن عامر •

٤ـ ان جساس بن مرة بن قيس هو أخ الجليلة التي تزوجها ـ في الحلقة الاولى ـ كليب بن ربيعة بن قيس (وهو ابن عمها) وشقيق المهلهل ووالد الجرو وهؤلاء مع التبع اليماني حسان وشقيقته مدار تفاصيل الأحداث والديوان الشعري الخاص بالزير سالم •

٥ـ لا بد من الاشارة هنا اننا نجد في تفاصيل الحلقة الاولى زيارة للزير سالم الى مدينة البصرة ووقائع له فيها وهي أحداث لا تخضع للسياق التأريخي المعتاد إذ ان البصرة لم تكن قائمة زمن المهلهل كما ان أحداث

السيرة الشعبية لا تخضع خضوعاً كلياً للمنطق التأريخي . إننا إذ نشير هنا الى هذه التفاصيل القليلة التي نراها ضرورية للبدء بتفاصيل أحداث وديوان الزير سالم نجد في تحقيق هذه الملحمة بكل أجزائها ضرورة فولكلورية عربية مهمة ينبغي أن يتصدى لها أكثر من باحث لحيوية البناء الدرامي الشعبي فيها وللتداخلات الميثولوجية الموجودة فيها » .

الـــرواة

بعد أن فرغنا من التدقيق في الصورة التأريخية للجسد السردي الخاص بالسيرة الهلالية ننطلق الى رواتها ..

أ ـ المدونون المؤرخون للمتن السردي

١ـ ابن خلدون ــ المقدمة وقد أورد فيها قصيـدة نسبها الى الشريف بن هاشم زوج الجازية أخت السلطان حسن أحد أبطال التغريبة ، وواضح أن هذا النص كان متداولاً إلا أن ابن خلدون لم يحقق فيه كمـا لم يحقق في الاشارات الأخرى التي أوردها عن السيرة الهلالية .

٢ـ عبدالرحمن الظاهري و د. عبدالحليم عويس في كتابهما (بنو هلال ـ أصحاب التغريبة في التأريخ والأدب) حيث ينسبان القبيلة الى هـلال بن عامر بن صعصعـة بن معاوية بن بكـر بن منصور بن عكرمـة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضـر وهو نسب يمتد طويلاً عـن النسب الذي حققته ولا مجال لتحقيق جدله هنا .

٣ـ شوقي عبدالحكيم في كتبه وباسم حمودي في دراساته عن الزير سالم.

ب ـ الـرواة الشـفهيون

١ـ بدو الرياض ، حائل ، تبوك ، عرعر ، حفر الباطن ، الجوف والقصيـم (نقلاً عن اليسون ليريك) والمقطعات التي نقلها عنهم معيض البخيتان وأبو عبدالرحمن الظاهري ومحمد الحمد العمري وإبراهيم اليوسف وحمد الجاسر وعبدالله بن خميس وغيرهم من باحثي نجد والحجاز ، وهؤلاء نقلوا عن رواة الجزيرة .

٢ـ رواية المنشد جابر أبو حسين الذي نقل عنه عبدالرحمن الأبنودي

٣ـ رواية المنشد الشعبي الحاج سعد بن عبدالله بن علي من جزيرة جربة بتونس .

٤ـ رواية المنشد دغيم الظليماوي الذي نقلت عنه المستشرقة كونولي قصيدة عن كليب في العدد الثامن لسنة ٧٧ من مجلة الأدب العربي في بحث تحت عنوان (الصيغ والمواضيع في الشعر الشفوي البدوي) مطلعها

يا كليب شب النار يا كليب شبه   عليك شبه والحطب لك يجابي

٥ ـ الرواة الآخرون في تونس والجزائر وفلسطين والاردن ومصر والمغرب وليبيا وهم بالمئات نقلت عنهم دراسات عبدالرحمن أيوب ورونس العزيزي وعبدالعزيز لبيب وغائب مولود مخلص ومحمد المرزوقي والسيد الاخضر بوزيان وغيرهم .

جـ ـ رواة الشفهي ـ المدون

وجسد الخطاب هنا مأخوذ عن رواية شفهية طبعتها مطابع محمد صبيح بمصر ومؤسسة المعارف ببيروت وعبدالفتاح عبدالحميد مراد وإبراهيم السديراوي بالعراق وغيرها ومنهم :

١ـ نجد بن هشام الذي يروي كتاب (الريادة البهية فيما جرى للأمير أبو زيد الهلالي) فيذكر اسمه بدايةً وفق النص الآتي :

الحمد لله الملك المنان واسع الفضل والاحسان الذي خلق الانسان وعلمه البيان ومنّ عليه بالسمع والبصر والعقل والايمان ، أحمده على الاحسان وأشكره على الفضل والامتنان ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهدت بوحدانيته جميع الأكوان ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد ولد عدنان ، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه الذين نالوا بصحبته وسيع الجنان .

وبعد ، قال المؤلف لهذا الديوان وهو نجـد بن هشام الراوي الى سير العربان انه لما شاع ذكر الأمير أبو زيد في جميع القرى والوديان » ثـم يستمر في الرواية مدوناً جملة (قال الراوي) بديلاً عن تكرار اسمه والطبعة التي بين أيدينا بلا تأريخ مدون عليها في الغلاف الاول (تطلب من مكتبـة الجمهورية العربية لصاحبها عبدالفتاح عبدالحميد مراد شارع الصنـاديقية بجوار الأزهر الشريف بمصر • طبعت بالمطبعة اليوسفية بشارع محمد علي بمصر وحجم القصة ١٦٧ صفحة من القطع المتوسط ولا تاريخ طبع لها •

٢ـ الشيخ حسن الخدري الذي يروي لنا من سيرة العرب الحجـازية كتاب (الدرة المنيفة في حرب دياب وقتل الزناتي خليفة) ويصفها بأنها (سيرة بديعة بهيجة وقائعها مدهشة غريبة بالتمام والكمال والحمد لله على كل حال) وهو كتاب يطلب من مكتبة الجمهورية العربية لعبدالفتاح عبدالحميد • وفي ذات المطبعة وتقول مقدمته :

الحمد لله الرحمن الرحيم ذو الوجود والاحسان الذي منّ علينـا بنعمة الاصلاح والايمان وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجي قائلها من النيران وأشهد أن محمداً عبده ورسـوله سيد ولد عدنان صلى الله عليه في كل وقت وأوان ، وبعد فاني لما رأيت سيرة العرب الحجازية والفرسان الهلالية من أحسن الأقوال وأفصحهاوأبدع المعاني وأظرفها جمعت هذا الكتاب وسميته الدرة المنيفة في حرب دياب وقتل الزناتي خليفة وشنق الزغابة وسجن دياب ورتبته على معـاني وأشعار ورسائل وأخبار يلتذ بها كل سامع وتصغي اليه المسامع ، قال الراوي لما تحاربت العربان الهلالية مع الزناتي خليفة ••• »

ولا يذكر راوي (الدرة المنيفة) اسمه إلا في ص٥٥ حيث ترد (قال الراوي الشيخ حسن الخدري رحمه الله) ثم لا يذكر اسمه بعد ذلك حتى النهاية وفي ص١٤٤ حيث يختم كتابه بالقول :

« وهذا آخر ما أردنا ذكره في هذا الكتاب والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم »

٣ـ رواية طبعة محمد علي صبيح في السيرة والتغريبة التي لا يرد فيها ذكر اسم الراوي ولا تبدأ بالبسملة المعتادة ومثلها رواية مكتبة المعارف ببيروت المنقولة عنها ولا تختمان النص بالتشهد ولا بوصف النص مثل وصف (ديوان) عند نجد بن هشام ووصف (كتاب) عند الخدري وتقطعان النصين بعبارة (حتى أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات) وهي عبارة مألوفة في كتب السير والملاحم العربية .

وواضح ان نصوص السيرة والتغريبة المختلفة قد اعتمد الطابع ـ الناشر فيها على ما يعتمد عليه التاجر من سرعة وعدم أناة وعدم تدقيق وحذف واضافة .

المتن بين الرواية الشفاهية والشفاهي ـ المدون

نحن هنا تقوم بعملية غير مألوفة في تحليل البنية السردية لأثر سردي عربي ذلك اننا نقوم بتصنيع الصورة السردية وذلك بايراد جزء منها ورد في نص شفاهي أولي ، بري غير مهذب وفي ثلاثة نصوص شفهية ـ مدونة معتمدين في كل الاحوال على القول بأن الجميع رواة للمتن السردي نفسه الذي لا زال متناً قابلاً للتغيير والتشكيل عند الرواة الآخرين ، معتبرين ان الراوي هنا هو نائب النص ، نائب المتن السردي ، يأخذ منه ويعطيه ويضيف اليه حسب مستوى (قراءته) له ووعيه بهذا المتن السردي وهدفه من أجله .

● الكلام هنا منطوق مروي ومنطوق ـ مدون ـ مروي وتشكيلات الرواية عنه لا تتخذ طريقة واحدة بل يمكن توصيفها حسب الترسمية الآتية :

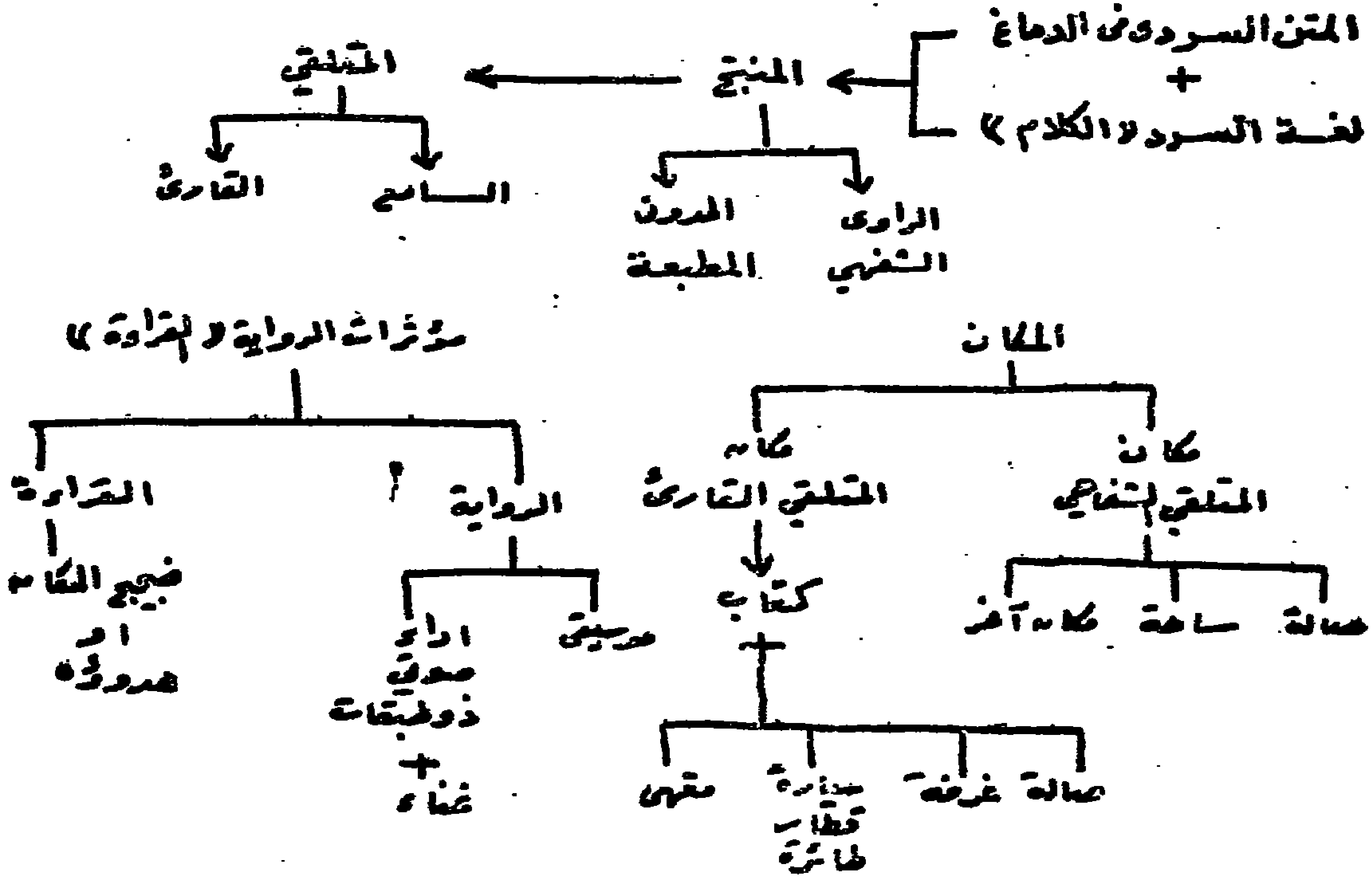
المتن السردي في الدماغ
+
لغة السرد (الكلام)
المنتج
الراوي الشفهي
المدون المطبعة
المتلقي
السامع
القارئ
المكان
مكان المتلقي الشفاهي
صالة
ساحة
مكان آخر
مكان المتلقي القارئ
كتاب
+
صالة
غرفة
سيارة قطار طائرة
مقهى
مؤثرات الرواية (القراءة)
الرواية
موسيقى
أداء صوتي ذو طبقات
+
غناء
القراءة
ضجيج المكان
أو
هدوؤه

إن هذا لا يشمل حالة المتلقي النفسية ساعة التلقي وحالة الراوي النفسية عند الاداء ولا يشمل كذلك لهجة الاداء • ذلك اننا أمام نصوص رويت أو دونت باللهجات المصرية ــ الحجازية ــ النجدية ــ السورية ــ العامية المفصحة •

● إن الأبطال في كل متون السيرة القولية والمدونة محاصرون بالراوي، خاضعون لتأثيراته فهو الذي يقزمهم (راجع رواية نجد) ويعملقهم (راجع رواية جابر ورواية صبيح) أمام السامع ــ القارىء ، وهو يمارس ذات التأثير الذي يمارسه المؤلف المدون ولكن الراوي الشفهي (راجع جابر) يستعين في لحظات الكلام ــ الاداء بمؤثرات تعبيرية أخرى غير اللسان الناطق وطبقات الاداء ومنها الموسيقى والتوقفات المنتسبة الى الاداء التمثيلي المطلوب •

والراوي هنا لا يستقل بالعمل الأدبي (المخلوق) بوصفه نصاً مسروداً عن السامع ــ المتلقي ــ القارىء •

وإذا كان صحيحاً ان القارىء غير السامع فان من الصحيح أيضاً ان نص جابر هو غير نص بيروت وهو غير نص نجد ونص الحجاز وغير نص صبيح أيضاً فلكل متن سردي قولي أو مكتوب شروطه التأثيرية في السامع ــ القارىء •

وإذا كان قول الراوي الشفاهي (جابر هنا) هو ممارسة تعبيرية أو تشكيل لعلاقة آنية بين الراوي المؤدي والسامعين فان هذا الموتيف السردي ينتهي الى تأثير محدد ينتهي بالاداء ذاته ، ويتزايد تأثيره إذا كان المتلقي من حفاظ المتن السردي ــ كما نحفظ نحن الاغنية ــ أو من هواة سماعه عن طريق شريط الكاسيت •

لكن ذلك لا يمنع جابراً من التغيير في المتن كنائب عنه بين أداء وآخر، كما ان وجود مؤدين آخرين في أماكن أخرى يجعل المتن السردي لعملية قتل عامر الخفاجي نصاً مفتوحاً ، أمام الاداء القولي أو الكتابي •

إن الراوي يصوغ كلامه ، تعبيره ، من منطق قدرته على انتاج نصه الذي يقوله ، يحكيه ، يؤديه والذي قد يتغير من زمن ادائي الى زمن آخر، قد يعالجه مختصراً مثل رواية نجد التي انبنت على عشرة أسطر وقد يكون طويلاً ينبني على زمن حكائي أطول ، ومتن سردي أكثر تفصيلاً نثراً وشعراً استغرق تدويني له من الكاسيت ١٢ صفحة مثل نص جابر ، وقد يكون النص المدون مشابهاً للنص الشفاهي في امكانات الانتاج ، مختصر مثل نص بيروت الذي يرفع النصوص الشعرية أو مطول مليء بالمشاهد الدرامية والتأثيرات الشعرية المصاحبة مثل نص صبيح •

إن الفرق هنا ان النص المدون أصبح (نظرياً) ثابتاً ، تراه العين ويتحسسه الدماغ ولكنه ــ باعتبار النصوص المدونة الأخرى ــ يظل نصاً قابلاً للتغيير والابدال في الصور والذرى الدرامية والنصوص الاربعة التي اخترناها أدلتنا على ذلك •

إن سطوة المتن السردي القديم لا تحكمها حالة واحدة ، فلكل متن تأثيره وفق مستوى الاداء القولي والمدون وحالة المتلقي ولكن يظل (قبول) المتلقي للمتن السردي وعمق تأثيره عليه أمراً قابلاً للنقاش فهو نظرياً لا بد ان يتصالح معه ، أن يألفه ، أن يريده ويرغبه ويتقبله ، ولكن النص القولي المنبعث من كاسيت السيارة قد لا يكون كذلك بالنسبة للمتلقي الذي لا يريده آنياً ، كما ان النص القولي المؤدى ساعة وجود المتلقي يختلف تأثيره من متلق لآخر ، فهناك حافظ للمتن مسبقاً وهناك من يسمعه لأول مرة وهناك من هو قريب من المؤدي مكاناً وهناك من هو بعيد عنه وعن ميكرفونه •

كل ذلك يدفعنا للقول ان المتن السردي الشعبي العربي القديم لا زال متناً قابلاً للمزيد من الدرس والبحث ولانتاج الكلام النقدي المصاحب له والمعتمد عليه وان مشكلة تدوين المتن السردي الحكائي العربي القديم لا تزال مشكلة كبيرة ، فلا زالت اللهجة وصورة اداء الراوي للمتن السردي

وطرق التدوين غير الثابتة تحكم حركتنا نحوه ولكنها أيضاً تثري من لغتنا النقدية حوله •

يقول د• حسن حنفي « النص هو تحول ارادي من الشفاهي الى الكتابي حرصاً على تسجيل المواقف وسرعة تقنينها انتقالاً من التعدد الى الوحدة ومن الاختلاف الى الاتفاق »[٧] ويقول أيضاً في مكان آخر من دراسته « أن العصر هو الذي يفسر النص في القراءة كما ان النص هو الذي يفسر العصر في التدوين »[٨]•

إن المشكلة التي تواجهنا ان (النصوص) الاربعة التي بين أيدينا وتحت أبصارنا (نصوص) افتراضية ، لم تدون من أجل القراءة المتأملة التي نصطنعها أو نريدها الآن بل هي نصوص قولية أساساً ، أحدها (نص جابر) لا زال نصاً قولياً سردياً يحتمل الحذف والاضافة من قبل مؤديه ــ مؤلفه ــ نائب النص لديه •

وإذن ، فان عدم اغفال هذه الحقيقة يجعلنا نقف مع هذه (النصوص) التي تتعرض لتفاصيل مسألة سردية واحدة موقفاً يضع هذه (النصوص) في سياقها الطبيعي بوصفها كلاماً سردياً لا يشكل ثباتاً رغم تدوين (صور) أو (نسخ) منه على الورق •

من جانب آخر ، ينبغي لنا القول احترازاً ان نص صبيح ونص بيروت اللذان وقعا تحت أسر الصفحة والمطبعة وحصلا على ترقيم وسياق درامي تسلسلي قد أصبحا صورتين سرديتين حاول المدونان حصر أحداث السرد فيهما ، انهما روايتان[٩] تتجسدان في حدود رغم أن قراءتهما مفتوحة ، لكن قراءة روايتي نجد وجابر رغم تدوينهما من قبل اليسون ليريك ومن قبلي (بالتتابع) تظل قراءة غير متكاملة لأننا أخذنا عن روايتين لا زال السارد (الراوي) يسردهما بين حين وآخر فحدودهما حدود غير مغلقة بالاوراق التي وضعنا فيها الكلام المسرود •

ملاحظات عن الروايات :

١ــ تأتي جملة « فلما أصبح الصباح » في مقدمة روايتي صبيح وبيروت ولكن المسار السردي يختلف بعد ذلك ويدخل نص « الصباح والمساء » في نص نجد ويدخل موتيف الترك أي القوم الاجانب في رواية نجد دخولاً غير تأريخي مرتبط ببنية الجزيرة العربية السياسية يومذاك ، أي يوم رواية الراوي حيث كان الاتراك في حالة نزاع مستمر مع الاهالي في نجد وهو أمر لا يشمل أي تفصيل للحدث المروي في السيرة .

٢ــ ورد اسم (حسن الخفاجي) خطأ في رواية بيروت بدلاً من (عامر) !

٣ــ لا تؤشر رواية نجد أي ذكر لمطاوع ولصفته (الخطيب) بل تختصر مقتل عامر الخفاجي بسطر واحد بينما يرد ذكر مطاوع ووظيفته (خطيب) في نصي صبيح وبيروت ، أما نص جابر فيجعله قائداً لأحد جيوش الزناتي وابن شقيقه .

٤ــ يرد في نص جابر ما يشير الى سفر الخفاجي مع الهلاليين بسبب حبه لوطفى بنت دياب وهو أمر تتفق عليه روايات نجدية وتونسية أخرى .

٥ ــ يسمى جابر حرب الخفاجي مع الزناتي حرب الگرعة وهو يقصد (القرعة) التي قام بها الفرسان العرب واختاروا على أساسها عامراً لقتال الزناتي وفي رواية جابر يعترض أبو زيد على القرعة باعتبار ان الخفاجي مجرد ضيف ولا يرد مثل ذلك في رواية نجد أو رواية بيروت ويستبدل السلطان حسن بعامر الخفاجي في رواية صبيح رغم ان السلطان حسن هنا هو الذي حاول منع الخفاجي من حرب الزناتي .

٦ــ ترد وصية الخفاجي عند مقتله !! في رواية صبيح وهي وصية تأخذ وتيرة سردية مستمرة لدى كل أبطال السيرة والتغريبة حيث يفيق البطل

الميت من رقدته قبل أن يمضي في رحلة النهاية لينشد وصيته التي يعبر فيها عن ايمانه بالقضاء والقدر والموت ويردد فلسفته في الحياة •

٧ــ ترد في سردية جابر موتيفات خرافية عن الزناتي خليفة منها انه إذا جرح فانه يعرض جروحه على الندى فاذا أصابها تعافى وذهبت الجروح، وترد في ذات السردية خرافة أخرى عن صدر الزناتي المكون من صندوق أضلاع وليس على هيئة قفص صدري وهو أمر يدفعه لتغطية جسمه بالزرد بحيث ان قاتله لا يستطيع ذلك إلا إذا طعنه في عينه فهي نقطة ضعفه الوحيدة ويتخيل لنا ان هذه الصورة الخرافية الاخيرة مأخوذة من الجزء السردي بكعب أخيل اليوناني وان الشفاء بالندى مأخوذ من معتقد شعبي قديم آخر دخل مصادفة في ثنايا سردية جابر •

★ ★ ★

ان تفاصيل كثيرة واختلافات في طرق الحركة السردية لتصوير المتن السردي بين النصوص المروية جميعها تتعلق بقدرة الراوي وثقافته وقدرته على بناء (النص) ولكن من حقنا ان نقول الآن : ان المتن السردي العربي القديم ظل محكوماً بالرواية السمعية ــ البصرية ، وبالرواية السمعية ــ البصرية لفظاً وموسيقى وجواً خارجياً ، كما ان المتن السردي العربي القديم المدون ظل محكوماً بالعامية (العاميات) المفصحة وبطرق الانتاج الطباعي الذي يكثف الذرى الدرامية تكثيفاً مضراً بالمتن أو يفتحه على ذرى أخرى، وقراءة ملية متأنية للمتون الأربعة المرفقة تثبت ذلك •

إننا ختاماً نقول ان الراوي بكل صفاته يظل نائباً عن النص ، يأخذ منه ويعطيه ، وتأثيره يظل محكوماً بزمن التلقي ومكانه •

من مصادر البحث وهوامشه

(١) عبدالحكيم قاسم ـ سيرة بني هلال ـ بيروت ـ دار التنوير للنشر ، ط١ ـ ١٩٨٣ .

(٢) د٠ عبدالعزيز لبيب ـ الفصيح في لغة الهلالية ـ م المأثورات الشعبية ـ الدوحة ـ العدد ٢٢ تموز ١٩٨٨ ٠

(٣) د٠ أحمد الشحاذ ـ الملاحم والسير الشعبية العربية ـ م التراث الشعبي ـ بغداد ـ العدد الفصلي الثاني ١٩٨٦ ٠

(٤) د٠ اليسون ليريك ـ روايات من تغريبة بني هلال وحروب آل ضيغم ـ الرياض ـ مطابع الفرزدق ـ د٠ت ٠

(٥) باسم عبدالحميد حمودي ـ دراسات في السيرة الهلالية : الزير سالم ـ اصدار سلسلة (الموسوعة الصغيرة) ٣٢٧ ـ بغداد ـ مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة ـ ١٩٨٩ ٠

(٦) المصدر السابق ـ ص٢٤-٣١ ٠

(٧) د٠ حسن حنفي ـ قراءة النص ـ مجلة (الف) مجلة البلاغة المقارنة القاهرة ـ العدد (٨) ربيع ١٩٨٨ ـ ص١٢ ٠

(٨) المصدر السابق ص١٧ ٠

(٩) فن الرواية والراوي .

الملاحـــق

١ ـ رواية جابر أبو حسين ٩٤

٢ ـ رواية بيروت ١٠٤

٣ ـ رواية الحجاز ١٠٦

٤ ـ رواية صبيح ١٠٧

رواية المنشد جابر أبو حسين عن مقتل الخفاجي

هذه قصة الملك عامر بن درغام بن فضل الخفـاجي ملك العراق الذي ترك ملكه وذهب سائراً على قدميه مع بني هلال الى تونس وما جرى لـه مع خليفة الزناتي قائد الغرب وبطل الجيوش في حرب الكرعه •

في الصباح نزل خليفة الى الميدان ودق طبول الحرب ... ظهرت علامات الكرب وقال : من المقاتل المبارز ، واجتمع العرب في الميدان ورموا الكرعة فوقعت الكرعة على الملك عامر بن ضرغام ، فثار أبو زيد الهـلالي وقال : هذه الكرعة لا تكون لأن عامـر ضيف فغضب عامر وقال كلاماً لأبو زيـد الهلالي [ربابة]

قد خاب عبـد لا يصلي على النبي	نبي عربي مالي شفيع سـواه
نبي الهدى لولاه ما نعرف الهدى	قطع العلاقة بحبر قناله (قناه)
اشكو لمن رفع السـما بلا عمـد	إلهـي تعالى محتجب في علاه
على ما جرى ويح قلبـي ما جرى	صابر على حكم الكريم مولاه
استغفر الله العظيـم من الخطـا	إلهـي تعالى لا إلـه سـواه
فلما فـرغ الزنـاتي من الأشعار	وسمعت عموم الأكابـر نظامه
كال اللي يبيع العمـر مش عـار	انما على شـيء يحفظ مقامه
أنا الزنـاتي أنا جمـع الحمـايل	زعيم الغروب والرجال يفهمولي
اراجل عمري عن الحلو المحـاميل	وللمرجـله كدمـوني
لازم انـزل الحـرب بكره	طبول البلاوي حزينـه
فحـلي ولا بنـت بكـره	اللـي متشـري حزينـه
أنـا الزنـاتي أسد الغروب	اتـوا الرجـال للهـلايل

الشاعر ينشد مرتلا

وحامت النسر وغروب واصبحوا العمرمي ، بكره لها يدور حربي ، بني هلال شحتنا يوم يا يرحلوا من غربي يا بالسيف هاقطع رجالهم ، ضربت طبول الميدان ، ركبت ولاد الاماره ، گال الفتى اللي فيها يبان ، حلت شعور العذارى ، ركبت عرايب بني عامر متگلده بالگضايب ، وطيرنا يافوك عامر وگالت نيران اللهايب الولد جلبوا الجنازير ، طلعت ولاد الاماره ، خرجوا في خلف الأمير فاتحين باب الخسارة ، گدامهم طوح السيف وگال البلاد دي بلادي ... أين المقاتل يجيني

الشاعر يتحدث

قال الأمير أبو علي والكل سامعين :

خيول العدا مالت الاراضي هاي اسحبوا الگرعه يا مقاتلين
شوف مين تجي الگرعه يا قاضي

الشاعر ينشد

سحبوا الگرعه والكل حاضرين/أنا بليت وجسمي/گالوا گرعة الحرب على مين گالوا جت على بو ذوابه ، عامر الفتى بن ضرغام فارس معلم وراقي ، على الحرب يهجم بضرغام ، زعيم وادي العراق ، گال البطل اسمر اللون ، راجل ظريف المعاني ، الاسمر أبو عقل موزون ، يا قاضي عيد الگرعة تاني ، الگرعة دي ما لازماش ، ازاي ينزل الحرب ضيفي عامر/حدانا رجل ضيف اشيلو في نون العيون ، راجل له أصل نظيف ، هيا يا رجال اسمعوني ، وگف عامر عالقدمين وگلوا يا ابن الشريفة ، كلامك يابو (ريا) زين ، يابو العروض النظيفة ، أنا معاكم على الخير والشر/وزمير في كل حاجة/يابو صبرا صاحب الشور ، لا نقسو ولا زيادة ، هاتحذفني من الحروبات كلمة يا عرب اسمعوها ، وقت ما حسبتوا الفتوات كان ليه گرعتي تكتبوها ، كتبت لي الگرعة مع المقاتلين وازاي

انا تحبـذفوني ، احنـا للبرى مستعدين هيا عـرب ايدوني ، إن منعتنـي الحروبات أرجع على العراق ثاني ، آخر كلام في الكلمات يا اسمر يا ظريف المعاني وگف الملك ابن سرحان عنده من الفهم ياما ، على حسـو الابـل سرحن گال اعطيولي گرعتوا يا سـلامه ، هيا دولوا العرب وتمه خدهـا وصلى ركعتان والخلق جملة تلمت

راجل ظريف المعاني والخلق جملة تلمت ، الفتى صلى ركعتين وسرج على الركوبه ، على ايدو گام هز سيفين وطلع توكل على الله ، ووراه ولاد الزغابه، وكل الاماره دي تابعاه على الخصم قلبه زغابه ، دفع الفرس الى الميـدان ورافعلو رابة نظيفة ، قال الفتى يظهر يبان رآه الزناتي خليفة ، عندما نظروا بعينـاه لگه سبع فوك الكحيلـه ، راجل طويلـه بعينـاه ، رافع للخصـم رايه كحيله ،

گالوا يا ما حلو طولك ورسمك راجل شيخ العرب والوجه نادي
ارجوك گلي على اسـمك والأصـل من أي وادي

الشـاعر : اسمع ... ويرد ثانيه

راجـل معلـم وراقي بكلام والـوب عـلام
أنـا زعيـم العراقي اسمي عامر بن درغـام

بن فضل بن خفاجه ، جاي ابدل فرحك بذور غم ، جهراً ولا هو خفاجـه ، گالوا لأجل القتال ، گلي لأجل ايه القتال ، ايه اللي بيني وبينك ، اخبـرني أسـد الرجال ، حاوريك فعلي بعينك ، گلوا أنـا أوريك السبب ايه ، أنا حاوريك السبب ايه ، أصل الهلايل ضافو ني، اللي جرى گلي عليه ، أعرفهم ويعرفوني ، سلامه ضاف عندي سنتين ، والله يعلم باللي حاصل ، اشـيل ضيفي بنون العين ، على الضيف منجلش وصلي ، خدوا العزومه وعزمـوا سـايرين وعزموا ليوم الرحيـل ، أنا گلت اين قاصـدين مع دول شـري ورحيلي ، سلامه گالي الى تونس الغرب ، يابو العنين النظيفة ، من بلدنا سايرين غرب معـانا قتال وياه خليفه ، انه قتل ولد الاشراف وانا الاماره

اتوني ••• انا سمعت بقتل الأشراف گلت يا عرب هزوا نداكم ، ما دام من الله ما خاف وانا خدوني معاكم

وبعد طول مفاخرة للزناتي أمام عامر قال له :

وافقنـي يـا ولـدي وروح   مالك ومـال البـلاوي
أخـاف ولادك تصبح تنـوح   مترمش روحك في بحر داوي
روح يا عـامر طـاوعني   يا عـامر ارجـع طـاوعني
يا حبيبـي لا يعـدم شبابك   كم ناسـ جت تلاوعنـي
متجيش للمنيـه اسـبابك

عامر گلوا الكلام دا تهـز بيه مين ، أنا بطل املا عيـونك ، احنا للبلـى مستعدين ، يا زناتي احفظ قانونك ، ادي الحـرب وانزلها دي معـايه ، وريني عزم الرجالا ، انا رجل حمل عالم اولى ، تب للبطل من فعالا ، خذو بعضهم ضرب الاثنين ، ساروا سروع الركايب ، انهار هزوهـا سـاعتين ، عقل العرب كان غايب ، أسـدين سبعين ضرغامين ، عامر قابل خليفـه ، يا سامعين صلبوا عالزين ، وجلبوا الخراب الرهيبه ، الاثنين خـدوا بعض ضربات يهزوا الجبال الرواسخ ، أسـدين فوك الركابا ، الاثنين سبوعـا صناديد ، على بعضها الخيل مالت ، ما عادش الخلاص بالايـد ، الحـرب بين الدول طالت •

ثم قال الشـاعر :

خليفـه وگـف على الركـابا   على گد نظروا مشـايف
ضربوا من ايدو ثلث ضربات   يجي مگدم العود هـايف
عـامر ابصر عمـل كيف   على ايـدو جـر الزنـاتي
فعلـو الفتـوة دي بالسـيفه   جرح بفخـذ الزنـاتي

كسر جرى للركايب وهدت العصب ومنهـا نزل دم سايل ، مسـك بايدو اليمين للجروح عصّب ، والحب اللي على الكتف مايل ، نزلت دمـاء

تجري على الارض ، وهجمت رجال الزناتي ، ورا رجل زعيم نظيف العرض، ومالت رجال وجروا الزناتي ، ومالت رجال في خلف من درغام ، وحبكــت معركة طاحنة ، هجموا الامارة والدمع زاد غار ، وزادت لها ضرباته ، مالــو على بعض ضربات ، زغابه ويه زناته ، يا ما هلكت فتوات ، رفعت رايــات انفصال ، انفصلوا الرجال يا حبايب ، راجل حميد الخصال ، لكن روح الگلب زايد ، رجع الزنــاتي لزم الفراش ، وگلب الفتى اتملى بــلاوي ، الشكوى لغير ربي ما لازماش ، بعت وجابولو مداوي ، جابولو الطبيــب يداويه ، جروح تنزف دماهــا ، راجل أصيــل جد بدري ، ادي البلــوه اللي رآها

عــامر رجــع فرحان	برجــال عــرب الزغابه
هنــوه وغنوا النســوان	وربط القلــب زغــابه
هنــاه زيدان واهاليــه	وأبو زيد وباقي العرايب
رجع من الحرب وهو ليث	يخزم شنب كل عــايب

خليفه داوا جرحو وطاب ، تم العلاج للزناتي ، الغرب لاح بعيونو ، راجل وعقلو فهيم ، بطل العرب حافظ قانونــه ، نادتله سعدى تگلــه ، لمــاذا البكاء يا حبيبي ، اشرح لي على الدور كله ، انا بگلبي گايــد لهيبي ، قال لهــا الزناتي اسمعي مني ما أقول ، انا أبوك راعيني ، ولكن رأيت شــيء ذهب العقول مثلو ما رأتك عيني .

القدمم خليفة الطبل العنيد والفارس الصنديد كانت جروحو تطيب على

الندى ، كان لما ينجرح في الحرب ، يطلع على سطح القصر بتاعو ويكشف جرحو للندى ، أول جرحو يلامس الندى يطيب ، كانت دي حاجة عجيبــة في كل الفرسان ما بتحصلش ، الحاجة الثانية خليفــة ما كانلوش ضلــوع

زينا ، كان لو من هنا ضلع ومن هنا ضلع ، يعني صندوق والضلع واحد، وكان خليفه دايماً يلبس الزرد من راسو لرجليه متبگاش باينه منـو إلا عينو ، يعني اللي يكتل خليفه لازم يكتلو في عيونو ولذلك طبعاً كان بطولة كبيرة جداً ان حربة عامر تنفذ من الزرد على رجل خليفه وتسيل دمـاه ، طبعاً خليفه زعل وتعكر من الموضوع وگعد يفكر كيف يغلب هذا الفارس وكيف يلاگيلو مخرج من الحرب معاه .. سعدى گالتلو لا يابه انت لازم تعرف نقط الضعف اللي فعدوك علشان تصيبو منها ، عامر الخفاجه الفارس اللي انت مفزوع منه وخـايف ده انا حاوريلك تدخلو منين ، منين تصطـاد عامر وعلشان اگلك الحكـاية دي لازم اگلك عامر جه من العـراق ليـه وعاش مع الهلاليين ازاي .

الشـاعر قالت الأميرة سعدى صف لي الأمير ابن درغام كما رأيت قال لها

اسمعي مني ما أقول اول كلامي اصلي على طه الرسول

موسيقى

أول ما نبدي نصلي على النبي نبينـا التهامي صاحب المعـراج
يقول أبو سعدى الزناتي خليفه بدمع جرى فوق العيون لجـاج
يا سـعدى رأيت بالله بناظري يوم البلاوي يوم سوق عجـاج
اولا عـالم يا بنتي حفظ اللغة عالم وحفظ يا سعدى العلم والأدب
والقال عنه حافظ المنهـاج .....
يعرف رموز العلم والفقه واللغة وعلم الفلك والنحـو والابراج
وتحته كحيله وسالم القد اندحا مثل الأسد وسط حملـه هـاج
اذنين مبرومين بعيـون ناذره والله مسـروجة بغير سـراج

خوذه يا مالي يا مكلله بالذهب فوقها اللؤلؤ عليه تاج
حربه في ايدو من بلاد البرابره جلابها في الصبح من سوهاج

ثم يصف السكين والمنطقة التي باربع لوالب من الذهب والتي جاء بها من الهند مع الحجاج ! ثم يقول :

فارس يهز السيف ويطوح القنا يخلي الدما فوق الثرى لجاج
ولكن يا سعدى أقسم بربنا لرميه رمية بالدما دو لجاج
ارميه بسيفي قطعتين وابهدلو ولا بد بعد الضيق يأتي فراج

نادلته سعدى تقوله ، اسمع كلامي يا بويه ، اوريك معنى دا كله ، اشرح لك يابه الحكاية ، عامر يا بايه مكانش قاصد قتال ، ولا جاي عشان حرب واصل ، عامر يا بايه بطل عمر الرجال ، يا بايه انا عندي تم الاخبار ، على جيتو مع الهلايل ، عامر يا بايه سبع والباع طايل ، عامر اصاو محمود وضافو ، هوه في منزله حودوا وضافوا ، سنتين عزم القبايل ، يعرفهم ويعرفوه ، زغبه ودريه ولاد الهلايل ، في خلال المدة دي وهمه مقيمين ، خد بالك من العجوبه ، راجل زين يابه ومتين ، في يوم طالع راكب له ركوبه ، وطالع يابه الى الصيد والقنص ، رأى البنات على العد ملمومين، وسارت تقول لأبوها ما جرى وكل الاماره والعرب سامعين :

انا أول ما نبدي نصلي على النبي نبي عربي شفيع لنا وضمين
اصلي على طه الذي جاء بالهدى يوم القيامة شفيع لنا وضمين
تقول سعدى بنت سلطان تونس ودموعها فوق الخدود نازلين
اصغى يا بايه مني معنى قصتي وكل الرجال تقول لها سامعين
طالع يا بايه فيوم للصيد والقنص وجد البنات عالعد ملمومين
سبلت غطاء الوجه وخبت دلالها لها وجه نادي على عيون جلوين
شكم الجواد ملك العراق ووقفه وغنى قصايد شعر موزونين

دي بنت مين يا جاز الطويلة الملفلفه	يا هن ترى يا جـاز ابو دي مين
گلتله ابوها دياب الزغابي بن غانم	بنات الزغابه العيون حـلوين
بنات الزغابه اعلم ميدرن يا فتى	ياميكدر يماسقهم إلا سلامه مِنين
تزوج بثينه جاب منهـا مخيمر	طالـع فتوه والخـوال زينـين
وثاني ناسب زغبه الخويا أبو علي	ملك الهلايل سـيد السلاطين
تزوج بنوفله جاب منهـا بريقع	طـالع فتوه أهـله سـلاطين
واتنه ياعامر الگلب قد صابك الهوى	غـادر بـلادك مدة وسـنين
واصبر على البلوى واشرب منها	وعش معـانا في البـلاد رهين
واصبر على البلوى لما توصل الهدف	وغادر بـلادك مدة وسـنين
سمع الكلام عامر قال آه يا بلوتي	دمعو نزل على الخد دم ثخـين
لا كل سنة بعشق ولا بعرف الهوى	ولا كان قلبي للصبـايا يلـين
انا كنت الوم أهل الهوى في هواهم	واقل لهم على ايـه مسگومين
لما ابتليـت بالحب أنا عـذرتهم	حسيت قلبي والفـؤاد حـزين
ياربي من قال في الهوى كلمة طيبة	تكون لـه يا ربي سـند ومعين
استغفر الله العظيـم من الخطـا	إلهي تعال حقو حـي متـين

بيحكو في معنى القضية ، يا رب حوش البلاوي ، الا رجـال دخلوا المريه ، خيول والطبل داوي ، الزناتي سمع الطبول ، من الهول سلم يا ساتر گام الزعيـم على طول ، گلها هيـا انهضوا يا عسـاكر ، قامت الرجـال بالحروبات ، بسلاح والعقل ضايع ، جدوا النظـر في الخلاوات ، وجـدوا الجيش قليل مطاوع ، تاري ابن المتوج ابن حمير حضر جا ، مطاوع أسـد الرجال ، ورا ربعمية فارس ورا ، على الميمنة والشمال ، مطاوع ابن المتوج ابن حمير كان غايب حضر من غيابو ، وگالوله قوم عقلو تحير ، رجعـوا للزناتي بالّنعوه ، وافق معـانا وطاوع ، الطبل دا اللي سمعتوه دا رجـالك وابنك المطاوع ، حضر لك طيب واهوه جاك يساعدك عالاعادي يطفي النار

الهو جاك حضر لك وجا في المعاد ، ݣال وصلوا اعلموه يا رجـال ݣبل ، اعلموا ابن خوي يا رجال ݣبل ، ݣولوله نار ݣلبي حزانه ، ݣولوله من عادرݣه الطبل آدخل جوف عمامك حزانى

دخل المطاوع على عمـه غضبان ... ݣال ايش عمي الحزن واللي جرالك
روحي فـداك انـا والفرسـان ... انـا من يمينـك شـمالك
يا عـم احكـي لي روحي فداك ... حـد زعلـك وانا غـايب
اشرح لي على اللي جرى معـاك ... انا الوي شـنب كـل عـايب
عمـو شـرحلوا على الـدور ... على مـا جرى مـع الخفـاجي
وعرفـوا انه الدنيا بتـدور ... جهـراً ولا هو خفـاجي
ݣلوا لمطاوع خلص ما تبكيش ... ادي صاحبـك الهـم جـالو
كـلام جد مش ݣول تبكيش ... وصـرخ وجمّع رجـالو
وقال المطـاوع أقسـمت بالله ... اللي في علـم ربـي يتيمـه
يكره وادي ݣولي والكل سامعاه ... لصبّـح دوابـه يتيمـه
ݣلو زنـاتي على مهلك يا ولدي ... على شي شـافتو عيـوني
كل البلاوي يا مطـاوع ولدي ... تعـال وصقلك الشافتو عبوني
عامر يا ابني ميملاش عينو الفين ... باللـه راجل من ظهـر راجـل
نزلت الحرب انا قصـاده يومين ... يا ولدي ما رأيت في اللقا مثل عامر
نادلاه المطـاوع يݣولـه ... ابـاي اصغي منـي جـوابي
انـا فهمت الرمـوز كله ... رايح اقتلـو بالهـدافي
أنا ريـاك انزل الحـرب وياه ... ولا يجينـي ولا جيلـو
انـا وريه مثلـو ومعناه ... دا متعـوس من دون جيلـو

انته تنزل الحرب وياه ، يابا خليفه زي كل يوم سابق ، ويجيك بالسـلاح في يداه ، بكحيل للخيل سابق ، يابا تاخـذ منه وتديه ، في الحـرب ينزل ݣبالك ، وانا اشوف حربو معانيه ، لما ياخذ ويعطيهـا لك ، انا اطلعلـك

بعشرة شبان ، عقلي انضرب بالجناين ، لسه ما بفهمش شي بان ، وادخلكم في الجنـايـن ، واتخبى بين البساتين ، والناس ما شايفانيش ، وانتو تبقـو مع بعض نازلين ، يا بايه غـير تخطيطي مفيشي ، عندما يزعـق عمي يطـل ، اتشوف الشمس غابت، اتولى گدا موهربان ، يطمع فيك الخفـاجي ، لمـا تكربوا عالبيبان جهراً ولا هـ وخفاجي ، آني اگوملك بحربتي وراه ، نـار البـلا في حشـايا ، وآني طاعنو برمـح في قفاه ، وآدي موت خصمك يا بايه .

الشـاعر ايضاً

لما سمع الزنـاتي فرح وزاط وانبسط ، فرح الأمير ، فرح البطـل خليفه الزناتي ، فرح وتم الأمان ، كما يفرح الصايم في عيد رمضان وقال يسلم يمينك

يسـلم يمينك يا واد يا غنـدور　　تخطيط لازم جاب اجلو في دي
يمطـاوع يا أصيل يا مشـهور　　اهو بردو هذا من أمر سـيدي
خـلاص يا ولدي كان ضمنـاه　　وصبحت دوابـه يتيمـه
يا ودع وجهـو بين الضمنـاه　　اصلو اللي نعلم ربـك يتيمـه

على غـدر عـامر باتوا مسـرين

(نقلت عن الشريط الصوتي مباشرة ومن دون تعديل أو تصحيح)

رواية بيروت

فلما أصبح الصباح وضاء بنوره ولاح ، برز الزناتي للميـدان فأراد السلطان أن يبرز اليه فمنعوه وقالوا نخـاف عليك من الزناتي وأبو زيـد ملسوع ودياب غائب وان صار لك حادث تشتت بنو هلال في الجبال ، فقام الخفاجي عامر وطلب الزناتي فمنعه حسـن وقال انت نزيل عندنا والنزيـل ما عليه حرب ، فقام الخفاجي وأقسم يميناً انه إن لم ينازل الزنـاتي عشرة أيـام يرحل هو وقومه عن بني هـلال ، فتركـوه فبرز الزنـاتي والتقى البطلان كأنهما جبلان وزعق فوق رأسيهما غراب البين وفي اليـوم الثالث كل الزناتي وولى هارباً من الخفاجي ، وكان عند الزناتي خطيب يسـمى مطاوع ، فقال للزنـاتي باكر انت انزل اليه وانا أتخبى ، وان انكسـرت اهرب قدامه فيلحقك حتى يفوتني فأجيله من الوراء وأطعنه من قفاه ، وأما الخفاجي فانه رأى مناماً ان قدام بيته شجرة طويلة أتاها نجار قطعها ، فقام من منامه مرعوباً واستدعى بنته ذؤابة وامرأته •

ثم ان أبا ذؤابة قال لها : يا بنتي إذا ركب بنو هـلال ماذا يكـون الجواب ؟ وانا حالف يمين اني أحارب الزناتي عشرة أيام • فقالت له تمارض يعذروك ، أما بنو هلال فدقوا طبولهم وركبوا خيولهم وتفقدوا الخفـاجي فما وجدوه ، فسأل عنه حسن فقالت الجازية انا أروح اليه ، فراحت تلاقي ذؤابة تبكي ، فسألتها عنه قالت مريض ، فرجعت أخبرتهم ، فقال حسـن الخفاجي أقسم يمين يحارب الزناتي عشرة أيام وحاربه ثلاثة بقي عليه سبعة، فكان حاضراً أمير اسمه ظريف فقال أنا اروح اليه فراح اليه وسـأله عن حاله فأشار الخفاجي يجيب عن سؤاله ، ثم وثب كالأسد وشد على جواده وتقلد بالحرب والجلاد وسـار مع ظريف ، فعندها زغردت البنـات ودقت العمـاريات •

وبعد ذلك التقى الفارسان في حرب وصدام الى أن انحل عزم الزناتي من شدة حربه ، فولى هارباً وللنجاة طالباً ، وحكم دربه نحو جناين الورد وكان الخطيب ماسكاً السيف بيده واذا بالزناتي هارب والخفاجي لاحقه ، فطلع الخطيب وطعن الخفاجي بين كتفيه ، خرج يلمع من بين لوحيه ، فرماه قتيلاً وفي دمه جديلاً ، فغار الفريقـان والتحمت الطائفتان وصـاح على رؤوسهم غراب البين ، أما ظريف صديق الخفاجي فلحق بالخطيب وطعنه ، أصاب الجواد ورماه على الارض ، فرد الزناتي اليه وخلصه من بين يديـه ولا زال القتال بينهم حتى ولى النهار فانفصلوا عن القتال وامتلأت الأرض من القتلى ، وأخذ الظريف الخفاجي عامر الى بيته وهو بحـالة النـزاع ، فلما رأته ذؤابة طار صوابها •

وأفاق من صحوة الموت وكلمها ثم شهق شهقة واحدة وسـلم الروح فقام عليه الصياح والتفت عليه العربان من كل ناحية حتى أملـوا الروابي والبطاح وكسروا عليه السيوف والرماح وغسلوه وكفنوه وواروه التراب ، يرجع قولنا الى الزناتي فانه دق الطبـل ونزل الى الميدان وطلب مبـارزة الفرسان ، فما برز اليه أحد ، فقام حسن وقال علامكم يا بني هلال ما أحد يبرز للزناتي ؟ فما أحد رد له جواب •

ص١٤٦ – ١٤٧

عن « تغريبة بني هلال » طبعة مؤسسة المعـارف – ط ٢ – بيروت – ١٩٧٧

رواية الحجـــاز

وتدور المعركة رحاها صباح ومساء اليامار انكسروا بني هلال وقـف لهم عامر الخفاجي ما عاد أحد تعدى جواده حامي الجراير كلها • هذولا وش هم حاطين ؟ حاطين حفور مطوقين بها على الديره ووســاع ، خيلهم مدربة عليها وخيل بني هلال خيل بــدو تكش من الحجر الصغير وهذولا مدربينها على الحفور تقفز وحاط لهــا بول خيــل معاطي في زراج الرمــح وانت يالزناتي خليفه والى انكسروا بني هلال طلع على الحصان وفام الحصان يصهل وتفاكت الخيل فام يخبزهم يذبح الفرسان وجواده طيب يلحق

بني هلال اندمروا عند الشي هذا الى منهم انكسروا الترك لاذوا ورا الحفور هذي عودت خيل بني هلال ما قفزت هذولا يقفزون فثمان ليــال والمعركة دايره رحاها ركاهم عامر الى نكست الخيل ركاها عامر في نحورهم وذبحوا كل فرسان الهلالات وذبح منهم الزغابا الثلاثة وذبح منهم عامــر ويوم فتل عامر الخفاجي فالوا تعالوا يا بني هلال ما ساد موقــف عــامر إلا ذياب حنا في شدة •

نقلتهـــا اليســـون ليريـــك في كتابهـــا

(روايــات من تغريبــة بني هـــلال)

ط الرياض ـ مطبعــة الفرزدق ـ د٠ت

روايــة صبيــح

ولما صأبح الصباح دق طبلـه وركب وأطلـق الغارة على بني هـلال فركبت بنو هلال خيولهم ودقت الطبول لهم فالتقى الفريقين وانحطت العين فبرز الزناتي الى الميدان وطلب مبارزة الفرسان فبرز اليه السلطان حسـن والتقوا البطلين كأنهم جبلين وطار من تحتهم الغبار حتى سد منافذ الأقطار وقد حك حوافر الخيل نار وانكسرت بينهم الرماح والطبول والسـيوف الثقال وكلّت منهم الزنود وزعقت منهم الجمود وبقوا على هذا الحال حتى دق الانفصال فافترقا على سلامة وباتوا الى الصباح يتحدثون فلمـا أصبح الصباح وضاء بنوره ولاح وطلعت الشمس على رؤوس الروابي والبطـاح فبرز الزناتي للميدان ومحل ضرب الطعان فأراد السلطان يبرز اليه فمنعوه قومه الأمارة وقالوا نخاف عليك من الزناتي وأبو زيد ملسوع ودياب غايب وإن صار لك حادث تروح بني هلال سراً في الجبال فقام الخفـاجي عامـر وطلب الزناتي فمنعه حسن وقال انت نزيل عندنا والنزيل ليس له حرب فقام الخفاجي وأقسم يمين عظيم إن لم ينزل الزناتي يرحل بقومه عن بني هلال فتركه وثاني يوم دق الزناتي طبله الى الميدان فبرز اليه الخفاجي عامر فالتقوا البطلين كأنهم جبلين وزعق فوق رؤوسهم غراب البين وفي اليـوم الثالث كل الزناتي وولى هارب من قدام الخفاجي وكان عند الزناتي خطيب يسمى مطاوع فقال الزناتي باكر انزل اليه وأنا مستخبي بين الـزرد وإن انكسرت قدامه فيلحقك حتى يفوتني فأجيله من وراه وأطعنه من قفاه وأعدمه الحياة وأما عن الخفاجي فانه رأى مناماً أن قدام بيته شجرة طويلة جاها نجـار قطعها وحفر شلوشها فقام من منامه مرعوباً واستدعى دوايـة وامرأتـه وقال لهم عن منامه :

يقول الخفاجي والخفاجي عـامر رأيت منـام منه عقـلي طـار

رأيت شجرة ثابتة في وسط دارنا قطعها سريعاً يوسف النجار
وقدم منشكه وحفر شلوشها وقطعها بالقادوم والمنشار
وأمس أرسل الزناتي يقول لي كلاماً أكيداً وضح الأسرار
يقول لي يا أمير اترك قتالنا وبطّل عنا جملة الاضرار
وعدني بالمال والملك والعطا يرغبني في معدن وابهار
فما ردت في هذه العطايا دوايه وأرمت في قلبي لهيب النار
يخاف انهم حسبوا حسابي جميعهم وقوم الزناتي كلهم مكسار
لأن منامي يا دوايه راعني وأرمى في قلبي لهيب النار
ولكن مهما يفعل الله جائز الله تعالى واحد قهار
قال المسمى الخفاجي عامر من ذا المنام بقيت كالمحتار
ردت دوايه بنت عامر تقوله اترك خلية لا تزيدن أشرار
أنا خائفة ذا المنام يعيبنا ويرمي لنا بالهم والاضرار
نخاف عليك من الزناتي خليفة انه أمير بالملا غدار
له سطوة بالحرب ما شفت مثلها يشبه لسبع الفلا غدار
ما شفت قوم هلال فيما جرى خلى دماهم على الوطا فوار
فاهجم ولا تمسغ واقعد وامتد يا مصعب الفرقة وبعد الدار
ما قالت دوايه والبكا حيلها يا حسرتي إن راح عن الدار

(قال الراوي) فلما فرغت دواية من كلامها وأبوها يسمع نظامها قال يا بنتي إذا ركبوا بني هلال ماذا يكون الجواب وأنا حالف يمين أني أحارب الزناتي عشرة أيام فقالت له عمل ضعيف يعذروك بني هلال دقوا طبولهم وركبوا خيولهم وفقدوا الخفاجي عامر فما وجدوه بينهم فسألوا عنه حسن فقالت الجازية أنا أروح اليه فراحت تلاقي دوايه قايمة تبكي فسألتها عنه قالت أصبح مريضاً فرجعت أخبرتهم فقال حسن الخفاجي أقسم يمين انه يحارب الزناتي عشرة أيام وحاربه ثلاثة أيام بقي عليه سبعة أيام فكان حاضر

أمير اسمه ظريف محب في الخفاجي فقال أنا أروح اليه أنظر معـانيه فراح الى عند الخفاجي فلما وصل كان نايم فجلس على حفيلة وقال لـه حـول يا خفاجي فحول عن جواده فسأله عن حاله فأشار الخفاجي يقول :

قال الخفاجي ولد ديرغـام عامر — يا ظريف حوّل تعـالى أضيف
وحبلي ارتخى مني يا أمير وانقطع — وعـاد جسمي يا أمـير تليـف
مرعـوب مما نظرته في منـامي — وقد عدت من هذا المنام رجيف
رأيت شجرة طالعـة وسط دارنا — أنا كل عرس نائـف وظيف
جـانا يجري وقطع غصونها — وأحرقها بمنشاره تحريف
وشفت الزناتي راح منـي هزيمه — وكنت عليه بالطـراد جنيف
خايف يكون دبر علينا حيلـة — ومهما تشوره ما بـه تخليـف
فرد المسمى ظريف وقال له — ألا يا خفاجي لا تكـن مخيف
شـد واركب الزنـاتي وصادمه — وأخاف تصبح بين الأنام مخيف
يا أمير إن العمر من رافع السماء — مكمن علينـا ليس منه مخيف
ما دام لك أجل ما قط تقتـل — ولو كنت نازل وسط بحر مطيف
حيـاة الفتى موته بظهر جواده — بيوم يكون الريق فيه نشـيف
يقتل يكسب الحمد والثنا — يبيض لعرضه وثنـاه نظيـف
انهض ولا تخشى المنايا جميعها — وإلا غشـينا بالذل والتخويف

(قال الراوي) فلما فرغ ظريف من كلامه والخفاجي يسـمع نظـامه وثب كالأسد وشد على جواده وتقلد بالحرب والجلاد وسار مع ظريف فعندها زغردت البنات ودقت العماريات وحين شافه الزناتي أنشد يقول :

يقول الزناتي من فؤادي معمـر — نيران قلبي زايدات وقودهـا
أنـا الخليفة بالحروب مجرب — لي سـيفاً بالخيـل أنا رادهـا
ألقى ألـوف الخيل ماني خـايف — أبطال تعرفني بيوم طرادهـا
أجول حـربي وحين طرادي — وتريد في حربي ترى انكـادها

ابشر بقصر العمر جالك واكـد لا بد ما تكن عميـق لحالهـا
رد الفتى المسمى خفاجي وقال له نار الحرب أنت قائم بشـرارها
أرسلت لك مكتوب كون صديقي وتعطيني تونس وكل جدادهـا
ما أرد أخون العيش يا بو سعيد أخاف ترخص عندنا أسـعارها
أو لا أكون الخفاجي عامـر في جـاه صغارهـا وكبارها
أصبح هزيل في هلال ممسخ ويكشفون عروضها وصخورها
لكـن اليـوم جيت الى حربـك لا بد أسـقيك. كأس مرارها

فلما فرغ من كلامه التقوا الفارسين في حرب وصدام وساروا في حرب شديد يفتك زرد الحديد فانفـك عزم الزناتي من شدة حربه فولى هـارب وللنجاة طالب وحكم ضربه نحو جناين الـورد وكان الخطيب كان من بين السجايا وماسك الرمح بيده واذا بالزناتي والخفاجي لاحقه فطلع الخطيـب طعن الخفاجي بين كتفيه خرج يلمع من لوحيه فرماه قتيل وفي دمـه جديل فغار الفريقين والتحموا الطائفتين وصاح على رؤوسهم غراب البين وأمـا ظريف صديق الخفاجي فقد شوش عليه فلحق الخطيب وطعنه بالرمح أصاب الجواد ورماه على الارض فرد الزناتي اليه وخلصـه من بين يديـه وركب الجواد ولا زال بينهم القتال حتى ولى النهار فانفصلوا عن القتال وامتلأت الأرض من القتلى وأخذ الظريف خفاجي عامر الى بيته ومدده فأشار يقول :

قالت دوايـه دمـوع من مآقيها نيران قلبـي من يقـدر يطفيهـا
جادت علينـا سليما من نواتيهـا واسقت لعـامر شربة من أوانيها
فأبكت دوايه دموعهـا لأجل والد ها بنت الخفاجي من يقدر يبكيها
يا حيف رحنـا ما شـفنا منازلها يا حيف يا بـدار العـز تخليها
أنـا دوايه أبو عامر الماجد أنشد المكارم وقد شـيد مبانيها
قـد كان ملك في أرض العـراق له كم كركبة من هموم الدهر يجليها
يا رب البين شتت لمومنا حول الليـالي تجهزنـا لياليها

حالـه مطاوع على شبه مبرشمة تشبه لريـم الملا السـرج محليها
طعنه بحربه طول الليل يسـقيها راح عامر طريح الفراش سـاليها
جاله ظريف سريع من فوق سابقه ضرب مطاوع ضربة جامده فيها
واضحى والدي بالعرى منطرحاً أظن عدنا الأرض والشرق تفنيها
من ذا الذي يوصل الأخبـار لأهلـنا وعلام عامر ترى من عاد يحميها
ما قالت دوايه ونار القلب مشتعلة على أنواهـا وعريبهـا وتاليهـا

فلما فرغت من كلامها أفاق أبوها من غشوته وأشار يقول :

يقول الخفاجي بن درغام عـامر بدمع جرى لا أظن مثلـه مدامع
نيران قلبي كلما أقـول تنطفي يهب لهـا جوا ضلوعي لـدايع
أنا مثل صقر رابيـا تحت عشه من المحـل جابته بروق اللوامـع
نسـى وكره لمـا طلع من بلاده وخلى في وكـره فروخ الجوازع
يبات ويسر طالب الصيد العلا يمنع حتى ما ترى الوقـد جامع
وإن كان هذا الطير ضيع وكره وراح على ذكره مديـد آل سايع
إذا جفـاك الدهر يـوم بقربه امال عن الأجواد إن كنت ضـايع
ولا تنزل إلا في بلاد رتيبه بلاد العـديه حولها السـم ناقع
وشـبانها تنقل السيف مع القنا على كل طافح برعب الخيل قارع
وشيوخها ترمى العدا في المهالك بالروح ما هو بالمسهمات القوانع
قولـوا للطير الذي في بـلاده أيضاً طيـور قد تجينا تواجـع
ما جاك يكسـب الحد والثنا تجيني وتأتيني بفعـل رواجـع
يا دوابة إن كانت دنـت منيتي فأوصي ظريفاً يجعل القبر واسـع
وبعد موتي ابعثوا الكتب لأهلنا عسى الخبر منهم يجيكم مسارع
ولا أظن خبر يأتيك من بلادي بلادي بعيـدة سـهلها والبقـائع
أبي وأمـي كيف ترى حـالهم ينتظروا رجوعي ولسـت براجع
ولا ولد من بعد مني بقى لهم دعوهم بعدي يسكبون المـدامع

وقولوا لهم عظم اللـه أجركم   ولدكم عامر عند ربه مطاوع

أوصيك يا حسن يا هلالي   دول يتامى ما لهم من مدافع

أنت شفوقاً على اليتامى ومحسن   يعطيك ربك عاليات المواضع

يا أيها الطير الذي بالفلا   تسما الى الدهر الذي بك طالع

تأكل ربيع بأرض مصر وزرعها   وتبيض بأرض العراق المواضع

سلم على أبي وأمي وقل لهم   يرضوا علينا في صلاة الجوامع

وأشهد أن اللـه لا رب غيره   فهو واحد وما له من ينازع

وأن محمداً عبده ورسوله   نبي أتى برحمة عاد شافع

أودعتكم اللـه ربي وخالقي   وفاتي قربت ما لها ممانع

وهذا مقالات الخفاجي عامر   والروح من رب الخلائق ودائع

فلما فرغ من قوله شهق شهقة واحدة سلم الروح لله وكان حسن سامع كلامه فقام عليه الصياخ والتفت عليه العربان من كل ناحية حتى أملوا الروابي والبطاح وكسروا عليه السيوف والرماح وغسلوه وكفنوه وواروه بالتراب يرجع قولنا الى الزناتي فانه دق الطبلة ونزل الميدان وطلب مبارزة الفرسان فما برز اليه أحد فقام حسن وقال علامكم يا بني هلال ما أحد يبرز للزناتي فما حد رد له جواب فقال القاضي مرادي أكتب أوراق توضعهم في جواب والذي تطلع ورقته ينزل غصب عن رقبته فقال هذا هو الصواب والأمر الذي لا يعاب فكتبوا الاوراق ووضعوهم في الجراب ومد القاضي يده وشالها فقال ورقتي فقالوا انزل اليه فقال حضروا لي قبر الخفاجي لأن أجلي قد دنا وحل ارتحالي من هذه الدنيا ولكن أمر الله ما منه مهرب فقالوا إذا لزم الأمر ما لها من زيد ولا عمر فقام اشتد واعتد

وأرمى العمامة عن رأسه ونزل الميدان فقال له الزناتي من تكون من الفرسان قال أنا قاضي العربان قال له قاضي وتعرف الحق من الباطل وتجهل حربي وتنزل فأشار يهدده ويقول :

بهذا الجزء قتل الخفاجي عامر بالخيانة والغدر وما حصل له من رجال الزنـــاتي ...

المحتويـــات

المقدمـة ٥ ـ ٦

الفصل الأول : مكانه الخفاجي في السيرة الهلالية ٧

الفصل الثاني : تعريبة عامر الخفاجي وفتاله ٢٩

الفصل الثالث : أيام الصراع ـ المقتل والوصية ٣٨

الفصل الرابع : عامر بن عامر ٥٣

الفصل الخامس : مقتل الخفاجي في الروايات الشفاهية المدونة ٧١

الملاحق :

١ ـ رواية جابر أبو حسين ٩٤

٢ ـ رواية بيروت ١٠٤

٣ ـ رواية الحجـاز ١٠٦

٤ ـ رواية صبيخ ١٠٧

طبع بمطابع دار الشؤون الثقافية العامة

عن هذا الكتاب

حقق المؤلف في هذا الكتاب الممتع الجزء العراقي من السيرة الهلالية الكبرى ، وهو كتاب جدير بالقراءة حقا

عبدالحميد العلوجي

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

الغلاف : عبدالكريم سيفو

السعر خمسة عشر دينارا

بغداد - ١٩٩٤

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة